بسم الله الرحمن الرحيم

٥٨١
ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه أرمن

في هذه السنة حصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب الموصل مرّة ثانية، وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية، فوصل إلى حلب، وأقام بها إلى أن خرجت السنة، وسار منها فعبر إلى أرض الجزيرة، فلمّا وصل حَرّان قبض على مظفّر الدّين كوكبري بن زين الدّين الذي كان سبب مُلكه الدّيار الجزريّة.

وسبب قبضه عليه أنّ مظفّر الدّين كان يراسل صلاح الدّين كلّ وقت، ويشير عليه بقصد الموصل، ويُحسّن له ذلك ويقوّي طمعه، حتى إنّه بذل له، إذا سار إليها، خمسين ألف دينار، فلمّا وصل صلاح الدّين إلى حَرّان لم يَفِ له بما بذل من المال، وأنكر ذلك، فقبض عليه، ووكّل به، ثمّ أطلقه، وأعاد إليه مدينتَيْ حَرّان والرُّها، وكان قد أخذهما منه، وإنّما أطلقه لأنّه خاف انحراف النّاس عنه بالبلاد الجزريّة، لأنّهم كلّهم علموا بما اعتمده مظفّر الدّين معه من تمليكه البلاد فأطلقه.

وسار صلاح الدّين عن حَرّان في ربيع الأوّل، فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعزّ الدّين سَنجر شاه، صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي عزّ الدّين صاحب الموصل، وكان قد فارق طاعة عمّه بعد قبض مجاهد الدّين، وسار مع صلاح الدّين إلى الموصل، فلمّا وصلوا إلى مدينة بلد سيّر أتابك عزّ الدّين والدته إلى صلاح الدّين ومعها ابنة عمّه نور الدّين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدّولة، يطلبون منه المصالحة، وبذلوا له الموافقة، والإنجاد بالعساكر ليعود عنهم؛ وإنّما أرسلهنّ لأنّه وكلّ مَن عنده ظنّوا أنّهنّ إذا طلبن منه الشام أجابهنّ إلى ذلك، لا سيّما ومعهنّ ابنة مخدومه ووليّ نعمته نور الدّين، فلمّا وصَلْنَ إليه أنزلهنّ، وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله، فأشار أكثرهم بإجابتهنّ إلى ما طلبن منه؛ وقال له الفقيه عيسى وعليُّ بن أحمد المشطوب، وهما من بلد الهكّاريّة من أعمال

الموصل: مثل الموصل لا يُترك لامرأة، فإن عزّ الدّين ما أرسلهنّ إلاّ وقد عجز عن حفظ البلد.

ووافق ذلك هواه، فأعادهنّ خائبات، واعتذر بأعذار غير مقبولة، ولم يكن إرسالهنّ عن ضَعْف ووهن، إنّما أرسلهنّ طلباً لدفع الشرّ بالتي هي أحسن. فلمّا عُدْن رحل صلاح الدّين إلى الموصل وهو كالمتيقّن أنّه يملك البلد، وكان الأمر بخلاف ذلك، فلمّا قارب البلد نزل على فرسخ منه، وامتدّ عسكره في تلك الصحراء بنواحي الحِلّة المَرَاقيّة، وكان يجري بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العماديّ، وكنتُ إذ ذاك بالموصل، وبذل العامّة نفوسهم غيظاً وحنقاً لردّه النساء؛ فرأى صلاح الدّين ما لم يكن يحسبه، فندم على ردّه النساء ندامة الكُسَعيّ[١]، حيث فاته حُسن الذِّكر ومُلك البلد، وعاد على الذين أشاروا بردّهنّ باللوم والتّوبيخ.

وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره ممّن ليس له هوى في الموصل يقبّحون فعله وينكرونه، وأتاه وهو على الموصل زين الدّين يوسف بن زين الدّين صاحب إربل. فأنزله ومعه أخوه مظفّر الدّين كوكبري وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقيّ من الموصل، وسيّر من المنزلة عليّ بن أحمد المشطوب الهكاريّ إلى قلعة الجُدَيْدة من بلد الهكّاريّة، فحصرها واجتمع عليه من الأكراد والهكّارية كثير، وبقي هناك إلى أن رحل صلاح الدّين عن الموصل.

وكان عامّة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب[٢] الشرقيّ من العسكر ويعودون[٣]؛ ولمّا كان صلاح الدّين يحاصر الموصل بلغ أتابكَ عزّ الدّين صاحبَها أنّ نائبه بالقلعة زلفنّدار يكاتبه، فمنعه من الصعود إلى القلعة وعاد[٤] يقتدي برأي مجاهد الدّين، وكان قد أخرجه، كما ذكرناه، ويصدر عن رأيه، وضبط[٥] الأمور، وأصلح ما كان فسد من الأحوال، حتى آل الأمر إلى الصلح، على ما نذكره إن شاء الله.

وحضر عند صلاح الدّين إنسان بغداديّ أقام بالموصل، ثمّ خرج إلى صلاح

---

(١) أنظر: «أندم من الكُسَعيّ» في: مجمع الأمثال للميداني ٢/٣٤٨ رقم ٤٢٩١.

(٢) في (ب): «من بالجانب».

(٣) في (ب): «ويعودون إليها».

(٤) في (ب): «وعاد إلى أصدقائه».

(٥) في (ب): «عن رأي الذي يسير به فضبط».

الدّين، فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينَوى، وقال: إنّ دجلة إذا نُقلت عن الموصل عطش أهلها فملكناها بغير قتال. فظنّ صلاح الدّين أن قوله صدق[١]، فعزم عن ذلك، حتّى علم أنّه لا يمكن قطعه بالكلّيّة، فإنّ المدّة تطول، والتعب يكثُر، ولا فائدة وراءه، وقبحه عنده أصحابه، فأعرض عنه[٢].

وأقام بمكانه من أوّل ربيع الآخر إلى أن قارب آخره، ثمّ رحل عنها إلى ميّافارقين. وكان سبب ذلك أنّ شاه أرمن، صاحب خِلاط، تُوفّي بها تاسع ربيع الآخر، فوصل الخبر بوفاته في العشرين منه، فعزم على الرحيل إليها وتملّكها، حيث إنّ شاه أرمن لم يخلّف ولداً ولا أحداً من أهل بيته يملك بلاده بعده، وإنّما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولَقَبُه سيف الدّين، فاستشار صلاح الدّين أمراءه ووزراءه، فاختلفوا، فأمّا مَن هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها؛ وأمّا مَن يكره أذَى البيت الأتابكيّ فإنّه أشار بالرحيل، وقال: إنّ ولاية خِلاط أكبر وأعظم، وهي سائبة لا حافظ لها، وهذه لها سلطان يحفظها ويذبّ عنها، وإذا[٣] ملكنا تلك سهُل أمر هذه وغيرها؛ فتردّد في أمره، فاتّفق أنّه جاءه كُتُب جماعة من أعيان خِلاط، من أهلها وأمرائِها، يستدعونه ليسلّموا إليه البلد، فسار عن الموصل، وكانت مكاتبة مَن كاتبه خديعة ومكراً، فإنّ شمس الدّين البهلوان بن إيلدكز، صاحب أَذَرْبَيجان وهَمَذان وتلك المملكة، قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم، وكان قبل ذلك قد زوّج شاه أرمن، على كِبَر سنّه، بنتاً له ليجعل ذلك طريقاً إلى مُلك خِلاط وأعمالها، فلمّا بلغهم مسيره إليهم كاتبوا صلاح الدّين يستدعونه إليهم ليسلّموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان، ويبقى البلد بأيديهم؛ فسار صلاح الدّين وسيّر في مقدّمته ابن عمّه ناصر الدّين محمّد بن شيركوه، ومظفّر الدّين بن زين الدّين وغيرهما، فساروا إلى خِلاط، ونزلوا بطُوَانَةَ بالقرب من خِلاط، وسار صلاح الدّين إلى ميّافارقين، وأما البهلوان فإنه سار إلى خِلاط، ونزل قريباً منها، وتردّدت رسل أهل خِلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدّين، ثمّ إنّهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان، وصاروا من حزبه وخطبوا له[٤].

---

(١) في الأوربية: «صدقاً».

(٢) في (ب): «فأعرض عن إجابته».

(٣) في (ب): «وإذا اتفق وملكنا تلك أسهل من هذه».

(٤) النوادر السلطانية ٦٧ ـ ٦٩، زبدة الحلب ٨٢/٣، مفرّج الكروب ١٦٨/٢، تاريخ الزمان ٢٠٣، =

ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن

في هذه السنة تُوفي نور الدّين محمّد بن قُرا أرسلان بن داود، صاحب الحصن وآمد، لمّا كان صلاح الدّين على الموصل، وخلّف ابنَين، فملك الأكبر منهما واسمه سقمان، ولَقَبُه قُطْب الدّين، وتولّى تدبير الأمور وزيره القوام بن سماقا الأسعرديّ.

وكان عماد الدّين بن قُرا أرسلان قد سيّره أخوه نور الدّين في عساكره إلى صلاح الدّين، وهو يحاصر الموصل، وهو معه، فلمّا بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصِغَر أولاده، فتعذّر عليه ذلك، فسار إلى خَرتَ بِرْتَ فملكها، وهي بيد أولاده إلى سنة عشرين وستّمائة، ولمّا حصر صلاح الدّين ميّافارقين حضر عنده ولد نور الدّين فأقرّه على مُلك أبيه، ومن جملته آمِد، وكانوا خافوا أن يأخذها منهم، فلم يفعل، وردّهم إلى بلادهم، وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه، ويصدروا[1] عن أمره ونهيه، ورتّب معه أميراً لَقَبه صلاح الدّين من أصحاب أبيه[2].

ذكر مُلك صلاح الدين ميّافارقين

لمّا سار صلاح الدّين إلى خِلاط جعل طريقَه على ميّافارقين مطمع مُلكها، حيث كان صاحبه قطب الدّين، صاحب ماردين، قد تُوفّي كما ذكرنا، وملك بعده ابنه، وهو طفل، وكان حكمها إلى شاه أرمن، وعسكره فيها. فلمّا تُوفّي طمع في أخذها، فلمّا نازلها رآها مشحونة بالرجال، وبها زوجة قُطب الدّين المُتَوَفّى، ومعها بنات لها منه، وهي أخت نور الدّين محمّد، صاحب الحصن، فأقام صلاح الدّين عليها يحصرها من أوّل جُمادى الأولى.

وكان المقدّم على أجنادها أميراً اسمه يرنقش[3]، ولَقَبُه أسد الدّين، وكان شجاعاً شهماً، يحفظ البلد، فأحسن إليه، واشتدّ القتال عليه ونُصبت المجانيق

= تاريخ مختصر الدول ٢١٩، ٢٢٠، مضمار الحقائق ٢١٢ ـ ٢١٨، المختصر في أخبار البشر ٦٩/٣، المغرب في حلى المغرب ١٥١، العبر ٢٤١/٤، دول الإسلام ٩١/٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨١هـ.) ص ٦، تاريخ ابن الوردي ٩٤/٢، مرآة الجنان ٤١٨/٣، ٤١٩، البداية والنهاية ٣١٥/١٣، ٣١٦، العسجد المسبوك ١٩٤/٢، تاريخ ابن خلدون ٣٠٣/٥، السلوك ج ١، ق ٨٩/١، ٩٠، شفاء القلوب ١١٤ ـ ١١٦، تاريخ ابن سباط ١٦٩/١.

(١) في الأوربية: «ويصدرون».

(٢) أنظر عن (ابن قرا أرسلان) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٨١هـ.).

(٣) في الأصل: «يرنقش» و«برنقش» بالياء المثنّاة، وبالباء الموحّدة.

والعَرّادات، فلم يصل صلاح الدّين إلى ما يريد منها؛ فلمّا رأى ذلك عدل عن القوّة والحرب إلى إعمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول لها: إنّ أسد الدّين يرنقش قد مال إلينا في تسليم البلد ونحن نرعى حقّ أخيك نور الدّين فيك بعد وفاته، ونريد [أن] يكون لك في هذا الأمر نصيب، وأنا أزوّج بناتك بأولادي وتكون ميّافارقين وغيرها لك وبحكمك؛ ووضع مَن أرسل إلى أسد[1] يعرّفه أنّ الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان، وأنّ مَن بخِلاط قد كاتبوه ليسلّموا إليه، فَخُذْ لنفسك.

واتّفق أنّ رسولاً وصله من خِلاط، يبذلون له الطاعة، وقالوا له من الاستدعاء إليهم ما كانوا يقولونه، فأمر صلاح الدّين الرسول، فدخل إلى ميّافارقين. وقال لأسد[1]: أنت عمّن تقاتل، وأنا قد جئت في تسليم خِلاط إلى صلاح الدّين! فسُقط في يده. وضعُفت نفسه، وأرسل يقترح أقطاعاً ومالاً. فأجيب إلى ذلك، وسلّم البلد سلْخ جُمادى الأولى، وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات الخاتون، وأقرّ بيده قلعة الهَتّاخ لتكون فيها هي وبناتها[2].

ذكر عود صلاح الدّين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أتابك عز الدّين

لمّا فرغ صلاح الدّين من أمر ميّافارقين، وأحكم قواعدها، وقرّر إقطاعاتها وولاياتها، أجمع على العَود إلى الموصل، فسار نحوها، وجعل طريقه على نَصيبين، فوصل إلى كفَر زَمّار، والزّمان شتاء، فنزلها في عساكره، وعزم على المقام بها وإقطاع جميع بلاد الموصل، وأخذ غلالها ودَخْلها، وإضعاف الموصل بذلك، إذ[3] علم أنّه لا يمكنه التغلّب عليها؛ وكان نزوله في شعبان، وأقام بها شعبان ورمضان، وتردّدت الرسل بينه وبين عزّ الدّين، صاحب الموصل، وصار مجاهد الدّين يراسل ويتقرّب،

---

(١) في الأوربية: «الأسد».

(٢) النوادر السلطانية ٦٩، تاريخ الزمان ٢٠٣، تاريخ مختصر الدول ٢٢٠، زبدة الحلب ٣/ ٨٢، الروضتين ٢/ ٦١، المغرب في حلي المغرب ١٥١، الدر المطلوب ٧٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨١هـ.) ص ٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٤، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٦، مرآة الجنان ٣/ ٤١٩، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٣، العسجد المسبوك ٢/ ١٩٤، السلوك ج ١، ق ١/ ٨٩، شفاء القلوب ١١٤، تاريخ ابن سباط/١/ ١٦٩، ١٧٠.

(٣) في الأوربية: «إذا».

وكان قوله مقبولاً عند سائر الملوك لما علموا من صحّته.

فبينما الرّسل تتردّد في الصلح، إذ مرض صلاح الدّين، وسار من كفر زمّار عائداً إلى حرّان، فلحِقه الرسل بالإجابة إلى ما طلب. فتقرّر الصلح، وحلف على ذلك، وكانت القاعدة أن يسلّم إليه عزّ الدّين شَهرزور وأعمالها وولاية القَرابليّ، وجميع ما وراء الزّاب من الأعمال، وأن يُخطب له على منابر بلاده. ويُضرب اسمه على السكّة، فلمّا حلف أرسل رُسُله فحلّف عزّ الدّين له، وتسلّموا البلاد التي استقرّت القاعدة على تسميتها.

ووصل صلاح الدّين إلى حرّان، فأقام بها مريضاً، وأمِنت الدّنيا، وسكنت الدَّهْماء، وانحسمت مادّة الفِتَن، وكان ذلك بتوصّل مجاهد الدّين قايماز، رحمه الله.

وأمّا صلاح الدّين فإنّه طال مرضه بحَرّان، وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل، وله حينئذٍ حلب، وولده الملك العزيز عثمان، واشتدّ مرضه حتى أيسوا من عافيته، فحلّف النّاس لأولاده، وجعل لكلّ منهم شيئاً من البلاد معلوماً، وجعل أخاه العادل وصيّاً على الجميع، ثمّ إنّه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

ولمّا كان مريضاً بحرّان كان عنده ابن عمّه ناصر الدّين محمّد بن شيركوه، وله من الأقطاع حمص والرّحبة، فسار من عنده إلى حمص، فاجتاز بحلب وأحضر جماعة من أحداثها وأعطاهم مالاً، ولما وصل إلى حمص راسل جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدّين، وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها، فعوفي وبلغه الخبر على جهته، فلم يمضِ غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى فإنّه شرب الخمر وأكثر منها، فأصبح ميّتاً، فذكروا، والعهدة عليهم، أنّ صلاح الدّين وضع عليه إنساناً يقال له النّاصح بن العميد، وهو من دمشق، فحضر عنده، ونادمه وسقاه سُمّاً، فلمّا أصبحوا من الغد لم يروا النّاصح، فسألوا عنه، فقيل: إنّه سار من ليلته إلى صلاح الدّين؛ فكان هذا ممّا قوّى الظنّ. فلمّا تُوفّي أعطى أقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا[1] عشرة سنة. وخلّف ناصر الدّين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيراً، فحضر صلاح الدّين في حمص واستعرض تركته، وأخذ أكثرها ولم يترك إلاّ ما لا خير فيه.

---

(١) في الأوربية: «اثنتي».

وبلغني أنّ شيركوه بن ناصر الدّين حضر عند صلاح الدّين، بعد موت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغتَ من القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[١] فعجب صلاح الدّين والحاضرون من ذكائه[٢].

ذكر الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل

في هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة، والموصل، وديار بكر، وخلاط، والشام، وشهرزور، وأَذَرْبيجان، وقُتل فيها من الخلق ما لا يُحصى، ودامت عدّة سنين، وتقطّعت الطرق، ونُهبت الأموال، وأُريقت الدّماء.

وكان سببها أنّ امرأة من التركمان تزوّجت بإنسان تركمانيّ، واجتازوا في طريقهم بقلعة من الزّوزان للأكراد، فجاء أهلها وطلبوا من التّركمان وليمة العُرس، فامتنعوا من ذلك، وجرى بينهم كلام صاروا منه إلى القتال، فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله، فهاجت الفتنة، وقام التركمان على ساق، وقتلوا جمعاً كثيراً من الأكراد، وثار الأكراد فقتلوا من التركمان أيضاً كذلك، وتفاقم الشرّ ودام.

ثمّ إنّ مجاهد الدّين قايماز، رحمه الله، جمع عنده جمعاً من رؤساء الأكراد والتركمان، وأصلح بينهم، وأعطاهم الخِلع والثياب وغيرها[٣]، وأخرج عليهم مالاً جمّاً، فانقطعت الفتنة وكفى الله شرّها، وعاد النّاس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة والأمان[٤].

ذكر مُلك الملثّمين والعرب إفريقية وعودها إلى الموحّدين

قد ذكرنا سنة ثمانين مُلك عليّ بن إسحق الملثّم[٥] بجَاية، وإرسال يعقوب بن

---

(١) سورة النساء، الآية ١٠.

(٢) النوادر السلطانية ٦٩، ٧٠، مضمار الحقائق ٢١٩، ٢٢٠، زبدة الحلب ٣/ ٨٢، ٨٣، تاريخ الزمان ٢٠٣، تاريخ مختصر الدول ٢٢٠، الروضتين ٢/ ٦١، المغرب في حلي المغرب ١٥١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٩، الدر المطلوب ٧٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨١هـ.) ص ٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٤، ٩٥، مرآة الجنان ٣/ ٤١٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٦، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٣، السلوك ج ١، ق ١/ ٨٩، العسجد المسبوك ٢/ ١٩٤، شفاء القلوب ١١٤، ١١٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٧٠.

(٣) في (أ): «والثياب والدواب وغيرها»، وفي (ب): «وأعطاهم مالاً فانقطعت».

(٤) العبر ٤/ ٢٤١، ٢٤٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨١هـ.) ص ٨، ٩.

(٥) في (ب): «الملثم ملك بجاية ودخلها».

يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، العساكر واستعادتها، فسار عليّ إلى إفريقية. فلمّا وصل إليها اجتمع سُليم ورياح ومَن هناك من العرب، وانضاف إليهم التُرك الذين كانوا قد دخلوا من مصر[1] مع قراقوش. وقد تقدّم ذِكر وصوله إليها. ودخل أيضاً من أتراك مصر مملوك لتقيّ الدّين ابن أخي صلاح الدّين، اسمه بوزابة، فكثُر جَمْعهم، وقويت شوكتهم، فلمّا اجتمعوا بلغت عدّتهم مبلغاً كثيراً، وكلّهم كارِهٌ لدولة الموحّدين، واتّبعوا جميعهم عليّ بن إسحق الملثّم، لأنّه من بيت المملكة والرياسة القديمة، وانقادوا إليه، ولقّبوه بأمير المسلمين، وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها جميعها شرقاً وغرباً إلاّ مدينتَي تونُس والمَهدِيّة، فإنّ الموحّدين أقاموا بهما، وحفظوهما[2] على خوف وضيق وشدّة، وانضاف إلى المفسد الملثّم كلّ مفسد في تلك الأرض، ومَن يريد الفتنة والنّهب والفساد والشرّ، فخرّبوا البلاد والحصون والقُرى، وهتكوا الحُرَم، وقطعوا الأشجار.

وكان الوالي على إفريقية حينئذٍ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي[3] وهو بمدينة تونس. فأرسل إلى ملك المغرب يعقوب وهو بمَرَاكش يُعلمه الحال. وقصد الملثّم جزيرة باشرا[4]، وهي بقرب تونس، تشتمل على قرى كثيرة، فنازلها وأحاط بها، فطلب أهلها منه الأمان، فأمّنهم، فلمّا دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدوابّ والغلاّت، وسلبوا النّاس حتّى أخذوا ثيابهم، وامتدّت الأيدي إلى النساء والصبيان، وتركوهم هَلْكَى، فقصدوا مدينة تونس، فأمّا الأقوياء فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقُوتهم، وأمّا الضعفاء فكانوا يستعطون ويسألون النّاس؛ ودخل عليهم فصل الشتاء، فأهلكهم البرد، ووقع فيهم الوباء، فأُحصيَ الموتى منهم فكانوا اثني[5] عشر ألفاً، هذا من موضعٍ واحد، فما الظنّ بالباقي؟

ولمّا استولى الملثّم على إفريقيا قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للإمام النّاصر لدين الله الخليفة العبّاسيّ، وأرسل إليه بطلب الخِلع والأعلام السود. وقصد

---

(١) زاد في (ب): «وغيرها».

(٢) في الأوربية: «بها وحفظوها».

(٣) في (أ) و (ب): «الهيثابي».

(٤) في (ب): «باشوا».

(٥) في الأوربية: «اثنا».

في سنة اثنتين وثمانين [وخمسمائة] مدينة قفصة فحصرها، فأخرج أهلها الموحّدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلّموها إلى الملثّم، فرتّب فيها جُنداً من الملثّمين والأتراك، وحصّنها بالرجال مع حصانتها في البناء.

وأمّا يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنّه لمّا وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحّدين، وقصد قلّة العسكر لقلّة القوت في البلاد، ولما جرى فيها من التّخريب والأذى، وسار في صفر سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستّة آلاف فارس مع ابن أخيه، فساروا إلى عليّ بن إسحاق الملثّم ليقاتلوه، وكان بقفصة، فوافَوْه، وكان مع الموحّدين جماعة من التُّرك، فخامروا عليهم، فانهزم الموحّدون، وقُتل جماعة من مقدّميهم، وكان ذلك في ربيع الأوّل سنة ثلاثٍ وثمانين.

فلمّا بلغ يعقوبَ الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من السنة، ثمّ خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثّم والأتراك، فوصل إليهم، فالتقوا بالقرب من مدينة قابِس، واقتتلوا، فانهزم الملثّم ومَن معه، فأكثر الموحّدون القتل حتّى كادوا يفنونهم، فلم ينجُ منهم إلاّ القليل، فقصدوا البرّ، ورجع يعقوب من يومه إلى قابِس ففتحها، وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم إلى مَرّاكُش، وتوجّه إلى مدينة قَفصة فحصرها ثلاثة أشهر، وقطع أشجارها، وخرّب ما حولها، فأرسل إليه التُّرك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد، فأجابهم إلى ذلك، وخرج الأتراك منها سالمين، وسيّر الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدوّ، وتسلّم يعقوب البلد، وقتل مَن فيه من الملثّمين، وهدم أسواره، وترك المدينة مثل قرية، وظهر ما أنذر به المهديّ بن تُومَرْت، فإنّه قال إنّها تخرب أسوارها وتُقطع أشجارها، وقد تقدّم ذكر ذلك؛ فلمّا فرغ يعقوب من أمر قَفصة واستقامت إفريقية عاد إلى مَرّاكُش، وكان وصوله إليها سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة فارق الرضيّ أبو الخير إسماعيل القزوينيّ الفقيه الشافعيّ بغداد،

---

(١) الأنيس المطرب لابن أبي زرع ١٥٤، نهاية الأرب ٢٤/٣٢٨ ـ ٣٣١، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٢/١٤٣، ١٤٤، تاريخ ابن خلدون ٦/٢٤٣، ٢٤٤، العبر ٤/٤٢٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨١هـ.) ص ٥.

وكان مدرّس النظاميّة بها، وعاد إلى قزوين، ودرّس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخَلّ، وكان من العلماء الصالحين[١].

وفيها كان بين أهل الكرْخ ببغداد وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جُرح فيها كثير منهم وقُتل، ثمّ أصلح النقيب الظاهر بينهم.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوفّي الفقيه مهذّب الدّين عبد الله بن أسعد الموصليّ[٢]، وكان عالماً بمذهب الشافعيّ، وله نظْمٌ حَسَن ونثْر أجاد فيه، وكان من محاسن الدّنيا، وكانت وفاته بحمص.

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨١هـ.) ص ٥.

(٢) انظر عن (الموصلي) في تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ١٠٨ ـ ١١٠ رقم ١٥.

٥٨٢
ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إيّاها

في هذه السنة أخرج صلاح الدّين ولده الأفضل عليّاً[١] من مصر إلى دمشق، وأقطعها له، وأخذ حلب من أخيه العادل، وسيّره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر، وجعله نائباً عنه، واستدعى تقيّ الدّين منها.

وسبب ذلك أنّه كان قد استناب تقيّ الدّين بمصر، كما ذكرناه، وجعل معه ولده الأكبر الأفضل عليّاً[١]، فأرسل تقيّ الدّين يشكو من الأفضل، ويذكر أنّه قد عجز عن[٢] جباية الخراج معه لأنّه كان حليماً كريماً إذا أراد تقيّ الدّين معاقبة أحد منعه؛ فأحضر ولدَه الأفضل، وقال لتقيّ الدّين: لا تحتجّ في الخراج وغيره بحجّة؛ وتغيّر عليه بذلك، وظنّ أنّه يريد إخراج ولده الأفضل لينفرد بمصر حتى يملكها إذا مات صلاح الدّين، فلمّا قوي هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب وسيّره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان، واستدعى تقيّ الدّين إلى الشام، فامتنع من الحضور، وجمع الأجناد والعساكر ليسير إلى المغرب، إلى مملوكه قراقوش، وكان قد استولى على جبال نَفوسة وبَرْقَة وغيرها، وقد كتب إليه يرغّبه في تلك [البلاد]، فتجهّز للمسير إليه، واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثر منهم.

فلمّا سمع ذلك صلاح الدّين ساءه، وعلم أنّه إن أرسل إليه يمنعه لم يُجبه، فأرسل إليه يقول له: أريد أن تحضر عندي لأودّعك، وأوصيك بما تفعله؛ فلمّا حضر

---

(١) في الأوربية: «عليّ».

(٢) في الأوربية: «من».

عنده منعه، وزاد في إقطاعه، فصار إقطاعه حماة، ومنبج، والمَعَرّة، وكفَرطاب، وميّافارقين، وجبل جُور، بجميع أعمالها، وكان تقيّ الدّين قد سيّر في مقدّمته مملوكَه بوزابة، فاتّصل بقراقوش، وكان منهم ما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وقد بلغني من خبير بأحوال صلاح الدّين أنّه إنّما حمله على أخذ حلب من العادل وإعادة تقيّ الدّين إلى الشام، أنّ صلاح الدّين لمّا مرض بحَرّان، على ما ذكرناه، أُرجف بمصر أنّه قد مات، فجرى من تقيّ الدّين حركات مَن يريد [أن] يستبدّ بالملك، فلمّا عُوفي صلاح الدّين بلغه ذلك، فأرسل الفقيه عيسى الهكّاريّ، وكان كبير القدر عنده، مُطاعاً في الجُند، إلى مصر، وأمره بإخراج تقيّ الدّين والمُقام بمصر؛ فسار مُجِدّاً، فلم يشعر تقيّ الدّين إلاّ وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة، وأرسل إليه يأمره بالخروج منها، فطلب أن يمهل إلى أن يتجهّز، فلم يفعل. وقال: تقيم خارج [المدينة] وتتجهّز. فخرج وأظهر أنه يريد الدّخول إلى الغرب؛ فقال له: اذهب حيث شئتَ؛ فلمّا سمع صلاح الدّين الخبر أرسل إليه يطلبه، فسار إلى الشام، فأحسن إليه، ولم يُظهر له شيئاً ممّا كان لأنّه كان حليماً، كريماً، صبوراً، رحمه الله.

وأمّا أخذ حلب من العادل، فإنّ السبب فيه أنّه كان من جملة جندها أميرٌ كبيرٌ اسمه سليمان بن جَندر، بينه وبين صلاح الدّين صُحبة قديمة، قبل المُلك، وكان صلاح الدّين يعتمد عليه، وكان عاقلاً ذا مكر ودهاء، فاتّفق أنّ الملك العادل لمّا كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنّه، وقدّم غيره عليه، فتأثّر بذلك.

فلمّا مرض صلاح الدّين، وعوفي، سار إلى الشام، فسايره يوماً سليمان بن جَندر، فجرى حديث مرضه، فقال له سليمان: بأيّ رأي كنتَ تظنّ أنّك تمضي إلى الصيد فلا يخالفونك؟ بالله ما تستحي يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذلك؟ وهو يضحك، قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عُشّاً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلّمتَ الحصونَ إلى أهلك، وجعلت أولادك على الأرض. هذه حلب بيد أخيك، وحماة بيد تقيّ الدّين، وحمص بيد ابن شيركوه، وابنك العزيز مع تقيّ الدّين بمصر يُخرجه أيّ وقت أراد، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمه يفعل به ما أراد. فقال له: صدقت، واكتم هذا الأمر؛ ثمّ أخذ حلب من أخيه، وأخرج تقيّ الدّين من مصر، ثمّ أعطى أخاه العادل حَرّان والرُّها وميّافارقين ليخرجه من الشام ومصر، لتبقى لأولاده، فلم ينفعه ما فعل لمّا أراد الله تعالى نقل

الملك عن أولاده على ما نذكره[١].

ذكر وفاة البَهلوان ومُلك أخيه قَزل

في هذه السنة، في أوّلها، تُوفّي البهلوان محمّد[٢] بن إيلدكز، صاحب بلد الجبلَ والرّيّ، وأصفهان، وأذربيجان، وأرّانيّة، وغيرها من البلاد، وكان عادلاً، حسنَ السيرة، عاقلاً، حليماً، ذا سياسة حسنة للمُلك، وكانت تلك البلادُ في أيّامه آمنة والرعايا مطمئنّةً؛ فلمّا مات جرى بأصفهان بين الشافعيّة والحنفيّة من الحروب والقتل والإحراق والنّهب ما يجلّ عن الوصف، وكان قاضي البلد رأس الحنفيّة، وابن الخُجَنديّ رأس الشافعية، وكان بمدينة الريّ أيضاً فتنة عظيمة بين السنّة والشيعة، وتفرّق أهلُها، وقُتل منهم، وخربت المدينة وغيرها من البلاد.

ولمّا مات البهلوان ملك أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان، وكان السلطان طُغرُل بن أرسلان بن طُغْرُل بن محمّد بن ملكشاه مع البهلوان، والخطبة له في البلاد بالسلطنة، وليس له من الأمر شيء، وإنّما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان، فلمّا مات البهلوان خرج طُغْرُل عن حكم قَزل، ولحِق به جماعة من الأمراء والجُند، فاستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها إن شاء الله تعالى.

[ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القُمّص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين[٣]]

كان القُمّص، صاحب طرابلس، واسمه ريمُند[٤] بن ريمُند الصّنجيليّ، قد تزوّج بالقُومَصة، صاحبة طَبريّة، وانتقل إليها، وأقام عندها بطبريّة. ومات ملك[٥] الفرنج بالشام، وكان مجذوماً، وأوصى بالمُلك إلى ابن أخت له، وكان صغيراً، فكفله القُمص، وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنّه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأناً، ولا أشجع ولا أجود رأياً منه، فطمع في المُلك بسبب هذا الصغير؛ فاتّفق أنّ الصغير تُوفّي، فانتقل الملك إلى أمّه، فبطل ما كان القُمص يحدّث نفسه [به].

---

(١) زبدة الحلب ٣/ ٨٤، ٨٥.

(٢) أنظر عن (البهلوان محمد) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٨٢هـ).

(٣) العنوان من النسخة الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٤) في (أ): «بيمند»، والمثبت هو الصحيح.

(٥) في الأوربية: «الملك».

ثمّ إنّ هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدِموا الشام من الغرب اسمه كي، فتزوّجتْه، ونقلتِ الملك إليه، وجعلتِ التّاج على رأسه، وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والإسبتاريّة والدّاويّة والبارونيّة، وأعلمتْهم أنّها قد ردّت المْلك إليه، وأشهدتْهم عليها بذلك، فأطاعوه، ودانوا له، فعظُم ذلك على القُمص، وسقُط في يديه، وطولب بحساب ما جبَى من الأموال مدّة ولاية ذلك الصبيّ، فادّعى أنّه أنفقه عليه، وزاده ذلك نفوراً، وجاهر بالمشاقّة والمباينة، وراسل صلاح الدّين، وانتمى إليه، واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدّين والمسلمون بذلك، ووعده النُّصْرة، والسّعي له في كلّ ما يريد، وضمن له أنّه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبةً، وكان عنده جماعة من فرسان القُمص أسرى فأطلقهم، فحلّ ذلك عنده أعظم محلّ، وأظهر طاعة صلاح الدّين، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كلمتهم وتفرّق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدّس منهم، على ما نذكره إن شاء الله.

وسيّر صلاح الدّين السرايا من ناحية طبريّة، فشنّت الغارات على بلاد الفرنج، وخرجتٍ سالمة غانمة، فوهن الفرنج بذلك، وضعفُوا وتجرّأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم[1].

ذكر غدر البرنس أرناط

كان البرِنْس أرناط، صاحب الكَرَك، من أعظم الفرنج وأخبثهم، وأشدّهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم، فلمّا رأى صلاح الدّين ذلك منه قصده بالحصْر مرّة بعد مرّة، وبالغارة على بلاده كرّة بعد أخرى، فذلّ، وخضع، وطلب الصلح من صلاح الدّين، فأجابه إلى ذلك، وهادنه وتحالفا، وتردّدت القوافل من الشام إلى مصر، ومن مصر إلى الشام.

فلمّا كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال، كثيرة الرجال، ومعها جماعة صالحة من الأجناد، فغدر اللّعين بهم، وأخذهم عن آخرهم، وغنم أموالهم

---

(١) الفتح القسّي للعماد ٦٧، ٦٨، مفرّج الكروب ٢/ ١٧٥، تاريخ الزمان ٢٠٧، زبدة الحلب ٣/ ٩٣، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٩، السلوك ج ١، ق ١/ ٩٢، تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٧٢٨ ـ ٧٣٠، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري (تأليفنا) ـ طبعة ثانية ـ ج ١/ ٥٢٧، ٥٢٨.

ودوابّهم وسلاحهم، وأودع السجون مَن أسره منهم؛ فأرسل إليه صلاح الدّين يلومه، ويقبّح فِعله وغدره، ويتهدّده إن لم يطلق الأسرى والأموال، فلم يُجب إلى ذلك، وأصرّ على الامتناع، فنذر صلاح الدّين نذْراً أن يقتله إن ظفر [به]، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى[1].

ذكر عدّة حوادث

كان المنجّمون قديماً وحديثاً قد حكموا أنّ هذه السنة التاسع والعشرين من جُمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان، ويحدث باقترانها رياح شديدة، وتراب يُهلك العباد ويخرّب البلاد، فلمّا دخلت هذه السنّة لم يكن لذلك صحّة، ولم يهبّ من الرياح شيء ألبتّة، حتى إنّ غلال[2] الحنطة والشعير تأخّر نجازها لعدم الهواء[3] الذي يذرّي به الفلاّحون، فأكذب الله أحدوثة المنجّمين وأخزاهم.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوفّي عبد الله بن برّي[4] بن عبد الجبّار بن برّي النّحْويّ المصريّ، وكان إماماً في النحْو، رحمه الله تعالى.

---

(١) تاريخ الزمان ٢٠٧، مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٣٨٩، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧١، دول الإسلام ٢/ ٩٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٢هـ.) ص ١١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦، السلوك ج ١، ق ١/ ٩٢، شفاء القلوب ١١٨، تاريخ ابن سباط ١/ ١٧٣.

(٢) في الأوربية: «الغلال».

(٣) في الأوربية: «الهوى».

(٤) انظر عن (ابن برّي) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ١٣٨ ـ ١٤٠ رقم ٥٧ .

٥٨٣
ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

اتّفق أوّل هذه السنة يوم السبت، وهو يوم النوروز السلطانيّ، ورابع عشر آذار سنة ألفٍ وأربع مائة وثمانٍ وتسعين إسكندريّة؛ وكان القمر والشمس في الحمل، واتّفق أوّل سنة العرب، وأوّل سنة الفُرس التي جدّدوها أخيراً، وأوّل سنة الروم[١]، والشّمس والقمر في أوّل البروج، وهذا[٢] يبعد وقوع مثله[٣].

ذكر حصر صلاح الدين الكَرَك

في هذه السنة كتب صلاح الدّين إلى جميع البلاد يستنفر النّاس للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق، وإلى مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد، ويحثّهم عليه، ويأمرهم بالتّجهّز له بغاية الإمكان، ثمّ خرج من دمشق، أواخر المحرّم، في عسكرها الخاصّ، فسار إلى رأس الماء، وتلاحقت به العساكر الشاميّة، فلمّا اجتمعوا جعل عليهم ولدَه الملك الأفضل عليّاً[٤] ليجتمع إليه مَن يرد إليه منها، وسار هو إلى بُصْرى، جريدة.

وكان سبب مسيره وقصده إليها أنّه أتته الأخبار أنّ البرِنس أرناط، صاحب الكَرَك، يريد أن يقصد الحجّاج ليأخذهم من طريقهم، وأظهر أنّه إذا فرغ من أخذ الحُجّاج يرجع إلى طريق العسكر المصريّ يصدّهم عن الوصول إلى صلاح الدّين، فسار إلى بُصْرى ليمنع البرِنس أرناط من طلب الحجّاج، ويلزم بلده خوفاً عليه.

وكان من الحُجّاج جماعة من أقاربه منهم محمّد بن لاجين، وهو ابن أخت صلاح الدّين، وغيره، فلمّا سمع أرناط بقرب صلاح الدّين من بلده لم يفارقه. وانقطع

---

(١) في (أ) زيادة: «وأول الأسبوع».
(٢) في (ب): «وهذا مما».
(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ١٤.
(٤) في الأوربية: «علي».

عمّا طمع فيه، فوصل الحجّاجُ سالمين؛ فلمّا وصلوا وفرغ سِرّه من جهتهم سار إلى الكَرَك فحصره وضيّق عليه وانتظر وصول العسكر المصريّ، فوصلوا إليه على الكَرَك، وبثّ سراياه من هناك على ولاية الكَرَك والشّوبك وغيرهما، فنهبوا وخرّبوا وأحرقوا، والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده، وسائر الفرنج قد لزموا طرف[1] بلادهم، خوفاً من العسكر الذي مع ولده الأفضل، فتمكّن من الحصر والنّهب والتّحريق[2] والتخريب، هذا فعل صلاح الدّين[3].

ذكر الغارة على بلد عكّا

أرسل صلاح الدّين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعةً صالحةً من الجيش إلى بلد عكّا ينهبونه ويخرّبونه، فسيّر مظفّر الدّين كُوكبري بن زين الدّين، وهو صاحب حَرّان والرُّها، وأضاف إليه قايماز النُّجْميّ ودِلْدِرِمْ الياروقيّ، وهما من أكابر الأمراء، وغيرهما، فساروا ليلاً، وصبّحوا صفوريّة أواخر صفر، فخرج إليهم الفرنج في جمع من الدّاويّة والاسبتاريّة وغيرهما، فالتقوا هناك، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق[4] السود.

ثمّ أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الفرنج، وقُتل منهم جماعة، وأُسر الباقون؛ وفيمن قُتل مقدّم الاسبتاريّة، وكان من فرسان الفرنج المشهورين، وله النكايات العظيمة في المسلمين، ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد، وغنموا وسبوا، وعادوا سالمين، وكان عَودهم على طبريّة، وبها القُمّص، فلم ينكر ذلك، فكان فتحاً كثيراً، فإنّ الدّاويّة والاسبتاريّة هم جمرة الفرنج، وسُيّرت البشائر إلى البلاد بذلك[5].

---

(١) في (ب): «أطراف».

(٢) في الأصل: «النهب التحريق» بسقوط الواو، والمثبت من (أ).

(٣) النوادر السلطانية ٧٤، تاريخ الزمان ٢٠٧، تاريخ مختصر الدول ٢٢٠، الفتح القسّي ٥٩، زبدة الحلب ٣/ ٩١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧١، دول الإسلام ٢/ ٩٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ١٦/ ١٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦، البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٠، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٥، السلوك ج ١، ق ١/ ٩٢، شفاء القلوب ١١٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٧٤، ١٧٥.

(٤) في (أ): «لها الوليد والمفارق».

(٥) النوادر السلطانية ٧٤، الفتح القسّي ٥٩، تاريخ الزمان ٢٠٧، تاريخ مختصر الدول ٢٢٠، زبدة الحلب ٣/ ٩١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧١، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٩، دول الإسلام ٢/ ٩٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ١٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦، البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٠، =

ذكر عود صلاح الدّين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج

لمّا أتت صلاحَ الدّين البشارة بهزيمة الاسبتاريّة والدّاويّة، وقَتْل من قُتل منهم، وأسر مَن أُسر، عاد عن الكَرَك إلى العسكر الذي مع ولده الملك الأفضل، وقد تلاحقت سائر الأمداد والعساكر، واجتمع بهم، وساروا جميعاً، وعرض العسكر، فبلغت عدّتهم اثني عشر ألف فارس ممّن له الأقطاع والجامكيّة، سوى المتطوّعة، فعبّأ عسكره قلباً وجناحَين، وميمنة وميسرة وجالسيّة وساقة، وعرف كلّ منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازمته. وسار على تعبئة، فنزل بالأقحُوانة بقرب طبريّة، وكان القمص قد انتمى إلى صلاح الدّين، كما ذكرنا، وكُتبه متّصلة إليه يعده النُّصْرة، ويُمَنّيه المعاضدة، وما يعِدُهم الشيطان إلا غروراً.

فلمّا رأى الفرنج اجتماع العساكر الإسلاميّة، وتصميم العزم على قصد بلادهم، أرسلوا إلى القُمص البطْرك والقُسوس والرهبان، وكثيراً من الفرسان، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدّين، وقالوا له: لا شكّ أنّك أسلمتَ، وإلاّ لم تصبر على ما فعل المسلمون أمس بالفرنج، يقتّلون الدّاويّة والاسبتارية، ويأسرونهم، ويجتازون بهم عليك، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه؛ ووافقهم على ذلك مَن عنده من عسكر طبريّة وطرابُلُس، وتهدّده البطْرك أنّه يحرمه، ويفسخ نكاح زوجته، إلى غير ذلك من التّهديد؛ فلمّا رأى القُمص شدّة الأمر عليه خاف، فاعتذر وتنصّل وتاب، فقبِلوا عُذْره، وغفروا زلّته، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين، والمؤازرة على حفظ بلادهم، فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم، والاجتماع معهم، وسار معهم إلى ملك الفرنج، واجتمعت كلمتهم بعد فُرقتهم، ولم تُغن عنهم من الله شيئاً، وجمعوا فارسهم وراجلهم، ثمّ ساروا من عكّا إلى صفوريّة، وهم يقدّمون رِجلاً ويؤخّرون أخرى، قد مُلئت قلوبهم رعباً[1].

ذكر فتح صلاح الدّين طبريّة

لمّا اجتمع الفرنج وساروا إلى صفوريّة، جمع صلاح الدّين أمراءه ووزراءه

= تاريخ ابن خلدون ٥/٣٠٥، السلوك ج ١، ق ١/٩٢، شفاء القلوب ١١٩، تاريخ ابن سباط ١٧٤، ١٧٥.

(١) الفتح القسّي ٦٨ و٧٤، المختصر في أخبار البشر ٣/٧١، السلوك ج ١، ق ١/٩٣، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ١/٥٣٠.

واستشارهم، فأشار أكثرهم عليه بترك اللّقاء، وأن يُضْعف الفرنج بشنّ الغارات، وإخراب الولايات مرّة بعد مرّة، فقال له بعض أمرائه: الرأي عندي أنّنا نجوس بلادهم، وننهب، ونخرّب، ونحرق، ونسبي، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه، فإنّ الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفّار، وأقبل يريد قتال المسلمين؛ والرأي أن نفعل فعلاً نُعذر فيه ونكفّ الألسنة عنّا؛ فقال صلاح الدّين: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفّار، فإنّ الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلاّ بعد الجدّ بالجهاد.

ثمّ رحل من الأقحُوانة، اليوم الخامس من نزوله بها، وهو يوم الخميس لسبعٍ بقين من ربيع الآخر، فسار حتى خلّف طبريّة وراء ظهره، وصعِد جبلها، وتقدّم حتى قارب الفرنج، فلم يرَ منهم أحداً، ولا فارقوا خيامهم، فنزل وأمر العسكر بالنزول، فلمّا جنّه الليّل جعل في مقابل الفرنج مَن يمنعهم من القتال، ونزل جريدة إلى طبريّة وقاتلها، ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عَنوةً في ليلة، ولجأ مَن بها إلى القلعة التي لها، فامتنعوا بها، وفيها صاحبتها، ومعها أولادها، فنهب المدينة وأحرقها.

فلمّا سمع الفرنج نزول صلاح الدّين إلى طبريّة وملكه المدينة، وأخذ ما فيها، وإحراقها، وإحراق ما تخلّف ممّا لا يُحمل، اجتمعوا للمشورة، فأشار بعضهم بالتّقدّم إلى المسلمين وقتالهم، ومنعهم عن طبريّة، فقال القُمص: إنّ طبريّة لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدّين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة، وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود، فوالله لقد رأيتُ عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيتُ مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدّين كثرةً وقوّةً، وإذا أخذ طبريّة لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلاّ بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزّمان عن أوطانهم وأهليهم. فيضطرّ إلى تركها، ونفتكّ مَن أُسر منّا.

فقال له برِنس أرناط، صاحب الكَرَك: قد أطلتَ في التّخويف من المسلمين، ولا شكّ أنّك تريدهم، وتميل إليهم، وإلاّ ما كنتَ تقول هذا، وأمّا قولك: إنهم كثيرون، فإنّ النّار لا يضرّها كثرة الحطب.

فقال: أنا واحد منكم إن تقدّمتم تقدّمتُ، وإن تأخّرتم تأخّرتُ، وسترون ما يكون.

فقوي عزمهم على التقدّم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام، فلمّا سمع صلاح الدّين بذلك عاد عن طبريّة إلى عسكره، وكان قريباً منه، وإنّما كان قصده بمحاصرة طبريّة أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكّن من قتالهم. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظٌ[1] شديد الحرّ، فوجد الفرنج العطش، ولم يتمكّنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكّنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد، وهو يوم السبت، وقد أخذ العطش منهم.

وأمّا المسلمون فإنّهم طمعوا فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرّض بعضهم بعضاً، وقد وجدوا ريح النصر والظَفَر، وكلّما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم ممّا ركبهم من الخذلان، زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التّكبير والتّهليل طول ليلتهم، ورتّب السلطان تلك اللّيلة الجاليشيّة، وفرّق فيهم النُشاب.

ذكر انهزام الفرنج بحِطّين

أصبح صلاح الدّين والمسلمون يوم السبت لخمسٍ بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدّموا إلى الفرنج، فركب الفرنج، ودنا بعضهم من بعض، إلاّ أنّ الفرنج قد اشتدّ بهم العطش وانخذلوا، فاقتتلوا، واشتدّ القتال، وصبر الفريقان، ورمى جاليشيّة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. هذا القتال بينهم، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين[2] نحو طبريّة، لعلّهم يردون الماء.

فلمّا علم صلاح الدّين مقصدهم صدّهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرّضهم، ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عمّا يضرّهم، والنّاس يأتمرون لقوله، ويقفون عند نهيه، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة مُنكَرَة على صفّ الفرنج، فقاتل قتالاً عجب منه النّاس. ثمّ تكاثر الفرنج عليه فقتلوه. فحين قُتل حمل المسلمون حملة منكرة فضعضعوا الكفّار وقتلوا[3] منهم كثيراً. فلمّا رأى القُمص شدّة الأمر على أنّهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتّفق هو

---

(١) في الأوربية: «قيظاً».

(٢) في الأوربية: «سائرون».

(٣) في الأوربية: «وقتل».

وجماعته وحملوا على مَن يليهم، وكان المقدّم من المسلمين، في تلك الناحية، تقيّ الدّين عمر ابن أخي صلاح الدّين، فلمّا رأى حملة الفرنج حملة مكروب، علم أنّه لا سبيل إلى الوقوف في وجوههم، فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه، ففعلوا، فخرج القُمّص وأصحابه ثمّ التأم الصفّ.

وكان بعض المتطوّعة من المسلمين قد ألقى في تلك الأرض ناراً، وكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح علىّ الفرنج، فحملت حرّ النار والدّخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحرّ النّار، والدّخان، وحرّ القتال، فلمّا انهزم القُمص سقُط في أيديهم وكادوا يستسلمون، ثمّ علموا أنّهم لا يُنجيهم من الموت إلاّ الإقدام عليه، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون [بها] المسلمين، على كثرتهم، عن مواقفهم لولا لطف الله بهم، إلاّ أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلاّ وقد قُتل منهم، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدّائرة بقُطرها، فارتفع مَن بقي من الفرنج إلى تلّ بناحية حِطّين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم، ويحموا نفوسهم به، فاشتدّ القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعوهم عمّا أرادوا، ولم يتمكّنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يُسمّونه صليب الصلبوت، ويذكرون أنّ فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح، عليه السلام، بزعمهم. فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك. هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجّالتهم، فبقي الملك على التلّ في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

فحكي لي عن الملك الأفضل، ولد صلاح الدّين، قال: كنتُ إلى جانب أبي في ذلك المصافّ، وهو أوّل مصاف شاهدتُه، فلمّا صار ملك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على مَن بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. قال: فنظرتُ إليه، وقد علته كآبة، واربدّ لونه، وأمسك بلحيته، وتقدّم، وهو يصيح: كذب الشيطان. قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التلّ، فلمّا رأيتُ الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحتُ من فرحي: هزمناهم! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أوّلاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتلّ، فصحتُ أنا أيضاً: هزمناهم! فالتفت والدي إليّ وقال: اسكت! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة؛ قال: فهو يقول

لي. وإذا[1] الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من فرحه.

وكان سبب سقوطها أنّ الفرنج لمّا حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات ممّا هم فيه، فلمّا لم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، نزلوا عن دوابّهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم على[2] بَكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه، والبرنس أرناط، صاحب الكَرَك، ولم يكن للفرنج أشدّ منه عداوةً للمسلمين. وأسروا أيضاً صاحب جُبيل، وابن هَنفري، ومقدّم الدّاوية، وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً جماعة من الدّاوية، وجماعة من الاسبتارية، وكثُر القتل والأسر فيهم، فكان مَن يرى القتلى لا يظنّ أنّهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظنّ أنّهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج، منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى[3] وتسعين وأربعمائة إلى الآن، بمثل[4] هذه الوقعة.

فلمّا فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدّين في خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس صاحب الكَرَك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجاً، فشرب، وأعطى فضله برِنسَ صاحب الكَرَك، فشرب. فقال صلاح الدّين: إنّ هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني؛ ثمّ كلّم البرنس، وقرعه بذنوبه، وعدّد عليه غدراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته وقال: كنتُ نذرتُ دفعتين أن أقتله إن ظفرتُ به: إحداهما لمّا أراد المسير إلى مكّة والمدينة، والثانية لمّا أخذ القَفَل غدْراً؛ فلمّا قتله وسُحب وأُخرج ارتعدت فرائص[5] الملك، فسكّن جَأشه وأمّنه.

وأمّا القُمص، صاحب طرابلس، فإنّه لمّا نجا من المعركة، كما ذكرناه، وصل إلى صور، ثمّ قصد طرابلس، ولم يلبث إلاّ أيّاماً قلائل حتى مات غيظاً وحنقاً ممّا

---

(١) في الأوربية: «وإذ».
(٢) في الأوربية: «عن».
(٣) في الأوربية: «أحد».
(٤) في الأوربية: «مثل».
(٥) في الأوربية: «قرائص».

جرى على الفرنج خاصّة، وعلى دين النصرانيّة عامّة[١].

ذكر عود صلاح الدين إلى طبريّة ومُلك قلعتها مع المدينة

لمّا فرغ صلاح الدّين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقي يومه، وأصبح يوم الأحد، فعاد[٢] إلى طبريّة ونازلها، فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها، فأجابها إلى ذلك، فخرجت بالجميع، فوفى لها، فسارت آمنة، ثمّ أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى فأُرسلوا إلى دمشق، وأمر بمن أُسر من الدّاويّة والاسبتاريّة أن يُجمعوا ليقتلهم.

ثمّ علم أنّ مَن عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه، فبذل في كلّ أسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصريّة، فأُحضر عنده في الحال مائتا[٣] أسير منهم، فأمر بهم فضُربت أعناقهم، وإنّما خصّ هؤلاء بالقتل لأنّهم أشدّ شوكة من جميع الفرنج، فأراح النّاس من شرّهم؛ وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل مَن دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره، ففعل ذلك، ولقد اجتزتُ بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة، فرأيتُ الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد، منها المجتمع بعضه على بعض، ومنها[٤] المفترق، هذا سوى ما جحفته السيول، وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد[٥].

ذكر فتح مدينة عكّا

لمّا فرغ صلاح الدّين من طبريّة سار عنها يوم الثلاثاء ووصل إلى عكّا يوم

---

(١) أنظر عن موقعة حطين في: الفتح القسّي ٦١ ـ ٨٤، والنوادر السلطانية ٧٥ ـ ٧٩، وتاريخ الزمان ٢٠٨، ٢٠٩، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٣٩٢، ٣٩٣، وزبدة الحلب ٣/ ٩٢ ـ ٩٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧١، ٧٢، ونهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٩، ٤٠٠، ودول الإسلام ٢/ ٩٣، ٩٤، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ١٧ ـ ٢٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦، ومرآة الجنان ٣/ ٤٢٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٢٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٥، ٣٠٦، ومشارع الأشواق لابن النحاس ٢/ ٨٣٧، ٩٣٤، ٩٣٥، والسلوك ج ١، ق ١/ ٩٣، وشفاء القلوب ١١٩ ـ ١٢١، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٧٦، ١٧٧، وانظر: رسائل ابن الأثير، بتحقيق أنيس المقدسي ـ بيروت ١٩٥٩ ـ ص ١٥٥ و١٥٦، وبتحقيق د. نوري حمّودي القيسي وهلال ناجي ـ الموصل ١٩٨٢ ـ ص ٦٨، وتاريخ طرابلس ١/ ٥٣٢، ٥٣٣.

(٢) في الأوربية: «عاد».

(٣) في الأوربية: «مائتي».

(٤) في الأوربية: «وفيها».

(٥) الفتح القسّي ٨٥، تاريخ الزمان ٢٠٩.

الأربعاء، وقد صعِد أهلها على سورها يُظهرون الامتناع والحفظ، فعجب هو والنّاس من ذلك لأنّهم علموا أنّ عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير، وأنّهم لم يسلم منهم إلاّ القليل، إلاّ أنّه نزل يومه، وركب يوم الخميس، وقد صمّم على الزحف إلى البلد وقتاله، فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون، ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيّرهم بين الإقامة والظعن، فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين، وساروا عنها متفرّقين، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم، وتركوا الباقي على حاله.

ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مُستهلّ جُمادى الأولى، وصلّوا بها الجمعة في جامع كان للمسلمين قديماً، ثمّ جعله الفرنج بِيعة، ثمّ جعله صلاح الدّين جامعاً، وهذه الجمعة أوّل جمعة أقيمت بالساحل الشاميّ بعد أن ملكه الفرنج. وسلّم البلد إلى ولده الأفضل، وأعطى جميع ما كان فيه للداويّة من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى، وغنم المسلمون ما بقي ممّا لم يُطق الفرنج حمله، وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه، فرأوا فيها من الذّهب والجوهر والسقلاط، والبندقيّ، والشّكر، والسلاح، وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً، فإنّها كانت مقصداً للتجّار الفرنج والروم وغيرهم، من أقصى البلاد وأدناها، وكان كثير منها قد[1] خزنه التجار، وسافروا عنه لكساده، فلم يكن له من ينقله، ففرّق صلاح الدّين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابهما، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنّه كان مقيماً بالبلد، وكانت شيمته في الكرم معروفة. وأقام صلاح الدّين بعكّا عدّة أيّام لإصلاح حالها، وتقرير قواعدها.

ذكر فتح مَجْدِ لَيَابَة

لمّا هزم صلاح الدّين الفرنج أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشّره بذلك، ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمَنْ بقي عنده من العسكر، ومحاصرة ما يليه منها، فسارع إلى ذلك، وسار عن مصر فنازل حصن مَجْدَ لَيَابَة وحصره وغنم ما فيه. وورد كتابه بذلك إلى صلاح الدّين، وكانت بشارة كبيرة.

ذكر فتح عدّة حصون

في مدّة مُقام صلاح الدّين بعكّا تفرّق عسكره إلى الناصرة، وقيساريّة، وحيفا،

---

(١) في الأوربية: «قد خزن بها التجار أنواع الأمتعة وسافروا».

وصَفورية، ومَعْلَيا، والشقيف، والفُولة، وغيرها من البلاد المجاورة لعكّا، فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء، وسيّر تقيّ الدّين فنزل على تِبْنِين ليقطع الميرة عنها وعن صور، وسيّر حسام الدّين عمر بن لاجين في عسكر إلى نابلس فأتى سَبَسْطِيَةَ وبها قبر زكرياء، فأخذه من أيدي النصارى وسلّمه إلى المسلمين، ووصل إلى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل مَن فيها بالأمان، وتسلّم القلعة، وأقام أهل البلد به، وأقرّهم على أملاكهم وأموالهم[1].

ذكر فتح يافا

لمّا خرج العادل من مصر، وفتح مَجْدَلَيابَة، كما ذكرنا، سار إلى مدينة يافا، وهي على الساحل، فحصرها وملكها عَنوةً، ونهبها، وأسر الرجال، وسبَى الحريم، وجرى على أهلها ما لم يجرِ على أحد من أهل تلك البلاد.

وكان عندي جارية من أهلها، وأنا بحلب، ومعها طفل عمره نحو سنة، فسقط من يدها فانسلخ وجهه، فبكت عليه كثيراً، فسكّنتُها وأعلمتُها أنّه ليس بولدها ما يوجب البكاء، فقالت: ما له أبكي، إنّما أبكي لما جرى علينا. كان لي ستّة إخوة هلكوا جميعهم، وزوجٌ وأختان لا أعلم ما كان منهم.

هذا من امرأة واحدة والباقي بالنسبة. ورأيتُ بحلب امرأة فرنجيّة قد جاءت مع سيّدها إلى باب، فطرقه سيّدها، فخرج صاحب البيت فكلّمهما، ثمّ أخرج امرأة فرنجيّة، فحين رأتها الأخرى صاحتا واعتنقتا، وهما تصرخان وتبكيان، وسقطتا إلى الأرض، ثمّ قعدتا تتحدّثان، وإذا هما أختان؛ وكان لهما عدّة من الأهل ليس لهما عِلمٌ بأحد منهم.

ذكر فتح تِبنِين وصيدا وجُبَيْل وبيروت

فأما تِبنين، فقد ذكرنا إنفاذ صلاح الدّين تقيّ الدّين ابن أخيه إلى تِبنين، فلمّا وصلها نازلها، وأقام عليها، فرأى حصرها لا يتمّ إلاّ بوصول عمّه صلاح الدّين إليه،

---

(١) النوادر السلطانية ٧٩، تاريخ الزمان ٢٠٩، تاريخ مختصر الدول ٢٢٠، زبدة الحلب ٣/ ٥٧، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٢، نهاية الأرب ٢٨/ ٤٠١، دول الإسلام ٢/ ٩٤، والعبر ٤/ ٢٤٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ) ص ٢٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦، ومرآة الجنان ٣/ ٤٢٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٢٢، ومشارع الأشواق ٢/ ٩٣٦، والسلوك ج ١، ق ١/ ٩٤، وشفاء القلوب ١٢٢ ـ ١٢٤، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٧٧، ١٧٨.

فأرسل إليه يعلمه الحال، ويحثّه على الوصول إليه. فرحل ثامن جُمادى الأولى، ونزل عليه في الحادي عشر منه[1]، فحصرها، وضايقها، وقاتلها بالزحف، وهي من القلاع المنيعة على جبل، فلمّا ضاق عليهم الأمر واشتدّ الحصر أطلقوا مَن عندهم من أسرى المسلمين، وهم يزيدون على مائة رجل، فلمّا دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدّين وكساهم، وأعطاهم نفقةً، وسيّرهم إلى أهليهم.

وبقي الفرنج كذلك خمسة أيّام ثمّ أرسلوا يطلبون الأمان، فأمّنهم على أنفسهم فسلّموها إليه، ووفَى لهم وسيّرهم إلى مأمنهم.

وأما صيدا فإنّ صلاح الدّين لمّا فرغ من تِبنين رحل عنها إلى صيدا، فاجتاز في طريقه بصَرَفَنْد فأخذها صفْواً عفواً بغير قتال، وسار عنها إلى صيدا، وهي من مدن الساحل المعروفة، فلمّا سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع. فلمّا وصلها صلاح الدّين تسلّمها ساعة وصوله وكان مُلكها حادي عشر جمادى الأولى. وأمّا بيروت فهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها. فلمّا فتح صلاح الدّين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوّة والجَلَد والعدّة وقاتلوا على سورها عدّة أيّام قتالاً شديداً واغترّوا بحصانة البلد، وظنّوا أنّهم قادرون على حفظه، وزحف المسلمون إليهم مرّة بعد مرّة، فبينما الفرنج على السّور يقاتلون إذ سمعوا من البلد جَلَبَة عظيمة وغلبة زائدة، فأتاهم مَن أخبرهم أنّ البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهراً وغلبة، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحّة، فأرادوا تسكين مَن به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد، فلمّا خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان، فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلّمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة فكان مدّة حصرها ثمانية أيّام.

وأمّا جُبَيْل فإنّ صاحبها كان من جملة الأسرى الذين سُيّروا إلى دمشق مع ملكهم فتحدّث مع نائب صلاح الدّين بدمشق في تسليم جُبَيل على شرط إطلاقه. فعرّف صلاح الدّين بذلك، فأحضره مقيّداً عنده تحت الاستظهار والاحتياط، وكان العسكر حينئذٍ على بيروت، فسلّم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به، وأطلقه صلاح

---

(١) في الأوربية: «حادي عشرَه».

الدّين كما شرط له، وكان صاحب جُبيل هذا من أعيان الفرنج وأصحاب الرأي والمكر والشرّ به يُضرب المثل بينهم، وكان للمسلمين منه عدوّ أزرق[1]، وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتي بيانه[2].

ذكر خروج المركيس[3] إلى صور

لمّا انهزم القُمّص صاحب طرابلس من حِطّين إلى مدينة صور أقام بها، وهي أعظم بلاد الساحل حصانةً وأشدّها امتناعاً على مَن رامَها، فلمّا رأى السلطان قد ملك تِبنين وصيدا وبيروت، خاف أن يقصد صلاح الدّين صورَ وهي فارغة ممّن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها، وتركها وسار إلى مدينة طرابُلُس، فبقيت صور شاغرةً لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين، فلو بدأ بها صلاح الدّين قبل تِبنين وغيرها لأخذها بغير مشقّة، لكنّه استعظمها لحصانتها فأراد أن يُفرّغ باله ممّا يجاورها من نواحيها ليسهُل أخذُها، فكان ذلك سبب حفظها، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

واتّفق أنّ إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيس[4]، لعنه الله، خرج في البحر بمالٍ كثيرٍ للزيارة والتّجارة، ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكّا، وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرنج وضرب الأجراس وغير ذلك، وما رأى أيضاً من زِيّ أهل البلد، فوقف ولم يدرِ ما الخبر، وكانت الريح قد ركدت، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينة يبصر مَن هو وما يريد، فأتاه القاصد فسأله المركيس[1] عن الأخبار لما أنكره، فأخبره بكسرة

---

(١) في الأوربية: «عدوّاً أزرق».

(٢) النوادر السلطانية ٨٠، الفتح القسّي ٩٩ ـ ١٠٨، تاريخ الزمان ٢٠٩، تاريخ مختصر الدول ٢٢٠، زبدة الحلب ٣/ ٩٧، مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٣٩٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٢، نهاية الأرب ٢٨/ ٤٠١، ٤٠٢، دول الإسلام ٢/ ٩٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ٢٢، ٢٣، العبر ٤/ ٢٤٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦، مرآة الجنان ٣/ ٤٢٤، البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٢، مشارع الأشواق ٢/ ٩٣٦، ٩٣٧، السلوك ج ١، ق ١/ ٩٤، ٩٥، شفاء القلوب ١٢٢ ـ ١٢٤، تاريخ ابن سباط ١/ ١٧٨.

(٣) في طبعة صادر ١١/ ٥٤٣ «المركيش» بالشين المعجمة والتصحيح من: الباريسية، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٠٥.

وهو: «كنراد ابن مركيز مونتيفرات». أنظر: تاريخ الحروب الصليبية، لرنسيمان ٢/ ٧٦٢، ٧٦٣.

(٤) في طبعة صادر ١١/ ٥٤٤ «المركيس».

الفرنج وأخذ عكّا وغيرها، وأعلمه أنّ صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها، وحكى الأمر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح، فردّ الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال، فأجيب إلى ذلك فردّده مراراً كلّ مرّة يطلب شيئاً لم يطلبه في المرّة الأولى، وهو يفل ذلك انتظاراً لهبوب الهواء ليسير به، فبينما هو في مراجعاته إذ هبّت الريح فسار نحو صور، وسيّر الملك الأفضل الشواني في طلبه فلم يدركوه، فأتى صورَ وقد اجتمع بها من الفرنج خلقٌ كثير، لأنّ صلاح الدّين كان كلّما فتح مدينة من عكّا وبيروت وغيرهما ممّا ذكرنا أعطى أهلها الأمان، فساروا كلّهم إلى صور، وكثُر الجمع بها إلاّ أنّهم ليس لهم رأس يجمعهم، ولا مقدّم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدّين وطلب الأمان وتسليم البلد إليه، فأتاهم المركيس وهم على ذلك العزم، فردّهم عنه وقوّى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الأموال وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره، فأجابوه إلى ذلك، فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم ودبّر أحوالهم، وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ، وله شجاعة عظيمة، وشرع في تحصينها فجدّد حفر خنادقها وعمل أسوارها، وزاد في حصانتها واتّفق مَن بها على الحفظ والقتال دونها[1].

ذكر فتح عَسْقَلان وما يجاورها

لمّا ملك صلاح الدّين بيروت وجُبيل وغيرهما، كان أمر عسقلان والقدس أهمّ عنده من غيرهما لأسباب منها أنّهما على طريق مصر، يقطع بينهما وبين الشام. وكان يختار أن تتّصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها، ولما في فتح القدس من الذّكر الجميل والصيت العظيم، إلى غير ذلك من الأغراض، فسار عن بيروت نحو عسقلان، واجتمع بأخيه العادل ومَن معه من عساكر مصر، ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وكان صلاح الدّين قد أحضر ملك الفرنج ومقدّم الداويّة إليه من دمشق، وقال لهما: إن سلّمتما البلاد إليّ فلكما الأمان؛ فأرسلا إلى مَن بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد، فلم يسمعوا أمرهما وردّوا عليهما أقبح ردّ وجبهوهما بما يسوءُهما.

فلمّا رأى السلطان ذلك جدّ في قتال المدينة ونصب المجانيق عليها، وزحف

---

(١) النوادر السلطانية ٨٠ (باختصار شديد).

مرّة بعد أخرى، وتقدّم النقّابون إلى السور، فنالوا من باشورته شيئاً. هذا وملكهم يكرّر المراسلات إليهم بالتّسليم، ويشير عليهم، ويعِدهم أنه إذا أُطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً، واستنجد بالفرنج من البحر، وأجلب الخيل والرَّجْل إليهم من أقاصي بلاد الفرنج وأدانيها، وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به.

ولمّا رأوا أنّهم كلّ يوم يزدادون ضُعفاً ووهناً، وإذا قُتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً، ولا لهم نجدة ينتظرونها، راسلوا ملكهم المأسور في تسليم البلد على شروط اقترحوها، فأجابهم صلاح الدّين إليها، وكانوا قتلوا في الحصار أميراً كبيراً من المهرانيّة، فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثأره، فاحتاطوا فيما اشترطوا لأنفسهم، فأُجيبوا إلى ذلك جميعه، وسلّموا المدينة سَلْخ جُمادى الآخرة من السنة، وكانت مدّة الحصار أربعة عشر يوماً، وسيّرهم صلاح الدّين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس، ووفى لهم بالأمان[1].

ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعَسقلان

لمّا فتح صلاح الدّين عسقلان أقام بظاهرها، وبثّ السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها، ففتحوا الرّملة، والدّاروم، وغزّة، ومَشهَد إبراهيم الخليل، عليه السلام، ويُبْنَى[2]، وبيتَ لحم، وبيت جِبريل، والنّطرون، وكلّ ما كان للداويّة.

ذكر فتح البيت المقدّس

لمّا فرغ صلاح الدّين من أمر عَسقلان وما يجاورها من البلاد، على ما تقدّم، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلة، ومقدّمهم حسام الدّين لؤلؤ الحاجب، وهو معروف بالشجاعة، والشهامة، ويُمن النقيبة، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كلّما رأوا لهم مركباً غنموه، وشانياً أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سرّه من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدّس، وكان به البطرك المعظّم عندهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان، صاحب الرملة، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضاً مَن خلص من فرسانهم من حِطّين، وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أهل تلك النواحي،

---

(١) النوادر السلطانية ٨٠، ٨١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ٢٨، نهاية الأرب ٢٨/ ٤٠٢.

(٢) في نهاية الأرب ٢٨/ ٤٠٢ «تُبنَى» وهو غلط.

عسقلان وغيرها، فاجتمع به كثير من الخلق، كلّهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدّس ويأخذوه منهم، ويرى أنّ بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه، وحصّنوه تلك الأيّام بما وجدوا إليه سبيلاً، وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدهم، مُجْمِعين على حِفْظه والذَّبّ عنه بجهدهم وطاقتهم، مُظْهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المجانيق على أسواره ليمنعوا مَن يريد الدُّنُوّ منه والنزول عليه.

ولمّا قرُب صلاح الدّين منه تقدّم أمير في جماعة من أصحابه، غير محتاط ولا حذر، فلقِيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يَزكاً، فقاتلوه وقاتلهم، فقتلوه وقتلوا جماعة ممّن معه، فأهمّ المسلمين قتله، وفُجعوا بفقده، وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلمّا نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم[1]، وسمعوا لأهله من الجلبة[2] والضجيج من وسط المدينة ما استدلّوا به على كثرة الجمع، وبقي صلاح الدّين خمسة أيّام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله، لأنّه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلاّ من جهة الشمال، نحو باب عَمُودا، وكنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها، ونصب تلك اللّيلة المجانيق، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها، ورمى بها.

ونصب الفرنج على سور البلد مجانيق ورموا بها، وقوتلوا أشدّ قتال رآه أحد من النّاس، كلّ واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً، وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعثٍ سلطانيّ بل كانوا يُمنعون ولا يمتنعون ويُزجرون ولا ينزجرون.

وكان خيّالة الفرنج كلّ يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيُقتل من الفريقين؛ وممّن استشهد من المسلمين الأمير عزّ الدّين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جَعْبَر، وكان يصطلي القتال بنفسه كلّ يوم، فقُتل إلى رحمة الله تعالى، وكان محبوباً إلى الخاصّ والعام، فلمّا رأى المسلمون مصرعه عظُم عليهم ذلك، وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم بلدهم، ووصل[3] المسلمون إلى الخندق، فجازوه

---

(١) في الأوربية: «أهالهم».
(٢) في الأوربية: «الغلبة».
(٣) في الأوربية: «ووصلوا».

والتصقوا إلى السور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمجانيق توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكّن المسلمون من النقب، فلمّا نقبوه حشوه بما جرت به العادة.

فلمّا رأى الفرنج شدّة قتال المسلمين، وتحكُّم المجانيق بالرمي المتدارك، وتمكُّن النقّابين من النقب، وأنّهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدّموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتّفق رأيهم على طلب الأمان، وتسليم البيت المقدّس إلى صلاح الدّين، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلمّا ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم، وقال: لا أفعل بكم إلاّ كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبي وجزاء السيّئة بمثلها. فلمّا رجع الرسل خائبين محرومين، أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدّين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده، ورغب في الأمان، وسأل فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه.

فلمّا أيس من ذلك قال له: أيّها السلطان اعلم أنّنا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى، وإنّما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظنّاً منهم أنّك تجيبهم إليه كما أجبتَ غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أنّ الموت لا بدّ منه، فوالله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثمّ نقتل مَن عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابّة ولا حيواناً إلاّ قتلناه ثمّ خرجنا إليكم كلّنا فقاتلناكم قتال مَن يريد [أن] يحمي دمَه ونفسَه، وحينئذٍ لا يُقتل الرجل حتى يَقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً.

فاستشار صلاح الدّين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أيّ شيء تنجلي، ونحسب أنّهم أسارى بأيدينا، فنبيعهم نفوسهم بما يستقرّ بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدّين حينئذٍ إلى بذل الأمان للفرنج، فاستقرّ أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغنيّ والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارَين، وتزن المرأة خمسة دنانير، فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا، ومَن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤدّ ما

عليه فقد صار مملوكاً، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأُجيب إلى ذلك.

وسُلّمت المدينة يومَ الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً. ورُفعت الأعلام الإسلاميّة على أسوارها، ورتّب صلاح الدّين على أبواب البلد، في كلّ باب، أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقرّ عليهم، فاستعملوا الخيانة، ولم يؤدّوا فيه أمانة، واقتسم الأمناء الأموال، وتفرّقت أيدي سبا، ولو أُدّيت فيه الأمانة لملأ الخزائن، وعمّ الناس، فإنّه كان فيه على الضبط ستّون[1] ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى مَن يتبعهم من النساء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإنّ البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها، والداروم، والرملة، وغزّة، وغيرها من القُرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي.

ومن الدّليل على كثرة الخلق أنّ أكثرهم وزن ما استقرّ من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار، وبقي بعد هذا جميعه مَن لم يكن معه ما يُعطي، وأُخذ أسيراً ستّة عشر ألف آدميّ ما بين رجل وامرأة وصبيّ، هذا بالضبط واليقين.

ثمّ إنّ جماعة من الأمراء ادّعى كلّ واحد منهم أنّ جماعة من رعيّة إقطاعه مقيمون بالبيت المقدّس، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم، وكان جماعة من الأمراء يُلبسون الفرنج زيّ الجُند المسلمين، ويخرجونهم، ويأخذون منهم قطيعة قرّروها، واستوهب جماعة من صلاح الدّين عدداً من الفرنج، فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلاّ القليل.

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم قد تَرهّبت وأقامت به، ومعها من الحشم والعبيد والجواري[2] خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومَن معها، فأمّنها وسيّرها.

وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدّين قد ملك الفرنج بسببها، ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها، وكان حينئذٍ محبوساً بقلعة نابلس، فأذِن لها، فأتته وأقامت عنده.

---

(١) في الأوربية: «ستّين».

(٢) في الأوربية: «والجوار».

وأتتْه أيضاً امرأة للبرنس أرناط صاحب الكَرَك، وهو الذي قتله صلاح الدّين بيده يومَ المصافّ بحِطّين، فشفعت في ولدٍ لها مأسور، فقال لها صلاح الدّين: إن سلّمتِ الكَرَك أطلقتُهُ؛ فسارت إلى الكَرَك، فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه، ولم يسلّموه، فلم يطلق ولدها، ولكنّه أطلق ما لها ومَن تبِعها.

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج، ومعه من أموال البيع منها: الصخرة والأقصى، وقُمامة وغيرها، ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرِض له صلاح الدّين، فقيل له ليأخذ ما معه يقوّي به المسلمين، فقال: لا أغدر به؛ ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسيّر الجميع ومعهم مَن يحميهم إلى مدينة صور.

وكان على رأس قبّة الصخرة صليب كبير مذهّب. فلمّا دخل المسلمون البلد يومَ الجمعة تسلّق جماعة منهم إلى أعلى القبّة ليقلعوا[1] الصليب، فلمّا فعلوا وسقط صاح النّاس كلّهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج: أمّا المسلمون فكبّروا فرحاً، وأمّا الفرنج فصاحوا تفجّعاً وتوجّعاً، فسمح النّاس ضجّة كادت الأرض أن تميد بهم لعِظَمِها وشدّتها.

فلمّا ملك البلد وفارقه الكفّار أمر صلاح الدّين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، فإنّ الداويّة بنوا غربيّ الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هُرْي ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأوّل، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس، ففُعل ذلك أجمع.

ولمّا كان الجمعة الأخرى، رابع شعبان، صلّى المسلمون فيه الجمعة، ومعهم صلاح الدّين، وصلّى في قبّة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيي الدّين بن الزّكيّ، قاضي دمشق، ثمّ رتّب فيه صلاح الدّين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يُعمل له منبرٌ، فقيل له: إنّ نور الدّين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصنّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه ليُنصب بالبيت المقدّس، فعمله النجّارون في عدّة سنين لم يُعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحُمل من حلب ونُصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنةً، وكان هذا من كرامات نور الدّين وحسن مقاصده، رحمه الله.

---

(١) في الأوربية: «ليقلعون».

ولمّا فرغ صلاح الدّين من صلاة الجمعة تقدّم بعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه، وتدقيق نقوشه، فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد مثله، ومن الفصّ المذهّب القسطنطينيّ وغير ذلك ممّا يحتاجون إليه، قد ادّخر على طول السنين، فشرعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصُّوَر، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيّبوها[1]، فأمر بكشفها.

وكان سبب تغطيتها بالفرش أنّ القِسّيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، فكانوا يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل في مذبحها، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها؛ فلمّا كُشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة، والربعات الجيّدة، ورتّب القرّاء، وأدرّ عليهم الوظائف الكثيرة، فعاد الإسلام هناك غضّاً طريّاً، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدّس لم يفعلها بعد عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، غير صلاح الدّين، رحمه الله، وكفاه ذلك فخراً وشرفاً.

وأمّا الفرنج من أهله فإنّهم أقاموا، وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم، وما لا يطيقون حمله، وباعوا ذلك بأرخص الثمن، فاشتراه التجّار من أهل العسكر، واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فإنّهم طلبوا من صلاح الدّين أن يمكّنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاشتروا حينئذٍ من أموال الفرنج، وترك الفرنج أيضاً أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرّة والصناديق والبَتّيات، وغير ذلك، وتركوا أيضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله، من الأساطين والألواح والفصّ وغيره، شيئاً كثيراً، ثمّ ساروا[2].

---

(١) في الأوربية: «وغطوها».

(٢) أنظر عن (فتح بيت المقدس) في: الفتح القسّي ١١٢ ـ ١١٥، والنوادر السلطانية ٨١، ٨٢، ومفرّج الكروب ٢/ ٢١٣ ـ ٢١٧، وزبدة الحلب، ٩٨ ـ ١٠٠، وتاريخ الزمان ٢١٠ ـ ٢١٢، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٠، ٢٢١، والأعلاق الخطيرة ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٢٠، والمغرب في حلي المغرب ١٥٤، ومرآة الزمان ٨/ ٣٩٧ ـ ٤٠٠، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٢، ٧٣، والدر المطلوب ٨٤ ـ ٩٣، والعبر ٤/ ٢٤٨، ودول الإسلام ٢/ ٩٤، ٩٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٣هـ.) ص ٢٣ ـ ٢٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٧، ٩٨، ومرآة الجنان ٣/ ٤٢٤، والإعلام والتبيين ٣٣؛ ٣٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٩ ـ ٣١١، والسلوك ج ١، ق ١/ ٩٦، ٩٧، وشفاء القلوب ١٢٨ ـ ١٥١، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٨٠، ١٨١.

ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها

لمّا فتح صلاح الدّين البيت المقدّس أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يُرتّب أمور البلد وأحواله، وتقدّم بعمل الرُّبط والمدارس، فجعل دار الاستبار مدرسة للشافعيّة، وهي في غاية ما يكون من الحسن؛ فلمّا فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور، وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير، وقد صار المركيس[(١)] صاحبها والحاكم فيها، وقد ساسهم أحسن سياسة، وبالغ في تحصين البلد، ووصل صلاح الدّين إلى عكّا، وأقام بها أيّاماً، فلمّا سمع المركيس[(١)] بوصوله إليها جدّ في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها، ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدُّنُوّ منها.

ثمّ رحل صلاح الدّين من عكّا، فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان، فنزل على نهرٍ قريب [من] البلد بحيث يراه، حتّى اجتمع النّاس وتلاحقوا، وسار في الثاني والعشرين من رمضان، فنزل على تلٍّ يقارب سور البلد، بحيث يرى القتال، وقسم القتال على العسكر كلّ جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه، بحيث يتّصل القتال على أهل البلد، على أنّ الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة، يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه، وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر إلى البحر، فلا يكاد الطير يطير عليها، فإنّ المدينة كالكفّ في البحر، والساعد متّصل بالبرّ والبحر من جانبَي الساعد، والقتال إنّما هو في الساعد، فزحف المسلمون مرّة[(٢)] بالمجانيق، والعرّادات، والجروخ، والدّبّابات، وكان أهل صلاح الدّين يتناوبون القتال مثل: ولده الأفضل، وولده الظاهر غازي، وأخيه العادل بن أيّوب، وابن أخيه تقيّ الدّين، وكذلك سائر الأمراء.

وكان للفرنج شَوانٍ وحرّاقات يركبون فيها في البحر، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ، ويقاتلونهم. وكان ذلك يعظُم عليهم، لأنّ أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم، وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبيهم، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضِيق الموضع، فكثُرت الجراحات في المسلمين والقتل، ولم يتمكّنوا

---

(١) في طبعة صادر ١١/٥٥٣ «المركيش» بالشين المعجمة، والمثبت عن الباريسية، والمصادر.

(٢) في (ب): «المسلمون إليها غير مرة».

من الدُّنوّ إلى البلد؛ فأرسل صلاح الدّين إلى الشواني التي جاءته من مصر، وهي عشر قطع، وكانت بعكّا، فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعُدّتها، وكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين، فتمكّن المسلمون حينئذٍ من القرب من البلد، ومن قتاله، فقاتلوه برّاً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب، وذلك أنّ خمس قطع من شواني المسلمين باتت، في بعض تلك اللّيالي، مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدّمهم عبد السلام المغربيّ الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته، فلمّا كان وقت السَّحَر أَمِنوا فناموا، فما شعروا إلاّ بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم، فأوقعت بهم، فقتلوا مَن أرادوا قتله، وأخذوا الباقين بمراكبهم، وأدخلوهم ميناء صور، والمسلمون في البرّ ينظرون إليهم، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر، فمنهم مَن سبح فنجا، ومنهم مَن غرق.

وتقدّم السلطان إلى الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلّتها، فسارت، فتبِعها شواني الفرنج، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مُجِدّين في طلبهم ألقوا نفوسهم في شوانيهم إلى البرّ فنجوا وتركوها، فأخذها صلاح الدّين، ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور في البرّ، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال.

وفي بعض الأيّام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم، فاشتدّ القتال بين الفريقين، ودام إلى آخر النهار؛ كان خروجهم قبل العصر، وأُسر منهم فارس كبير مشهورٌ، بعد أن كثُر القتال والقتل عليه من الفريقَين، لمّا سقط، فلمّا أُسر قُتل، وبقوا كذلك عدّة أيّام[1].

ذكر الرحيل عن صور إلى عكّا وتفريق العساكر

لمّا رأى صلاح الدّين أنّ أمر صور يطول رحل عنها، وهذه كانت عادته، متى

---

(١) أنظر عن (حصار صور) في: الفتح القسّي ١٥٣، والنوادر السلطانية ٨٣، وزبدة الحلب ٣/ ١٠٠، وتاريخ الزمان ٢١٢، وتاريخ مختصر الدول ٢٢١، ٢٢٢، والمغرب في حلي المغرب ١٥٥، ومفرّج الكروب ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٠٥، ٤٠٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٣، ودول الإسلام ٢/ ٩٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٨٣دهـ.) ص ٢٩، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٠٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٨، والإعلام والتبيين ٣٨، ٣٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٢٧، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣١١، والسلوك ج ١، ق ١/ ٩٧، وشفاء القلوب ١٥١، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٨٢.

ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه. وكان هذه السنة لم يطُل مُقامه على مدينة بل فتح الجميع في الأيّام القريبة، كما ذكرناه، بغير تعب ولا مشقّة. فلمّا رأى هو وأصحابه شدّة أمر صور ملّوها، وطلبوا الانتقال عنها، ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدّين، فإنّه هو جهّز إليها جنود الفرنج، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكّا وعسقلان والقدس وغير ذلك، كما سبق ذكره؛ كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها من سلِم من فرسان الفرنج بالساحل، بأموالهم وأموال التجّار وغيرهم، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدّونهم، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، ووعدوهم بالنُّصْرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون[1] بها ويلجأون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذّبّ عنها.

وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك ليُعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، وإن ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً، مضيّعاً للحزم، وأعذر له عند النّاس.

ولمّا أراد الرحيل استشار أمراءه، فاختلفوا، فجماعة يقولون: الرأي أن نرحل، فقد جُرح الرجال، وقُتلوا، وملّوا، وفنيت النفقات، وهذا الشتاء قد حضر، والشوط بطين، فنُريح ونستريح في هذا البرد، فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها. وكان هذا قول الأغنياء منهم، وكأنّهم خافوا أنّ السلطان يقترض منهم ما ينفقه في العسكر إذا أقام لخلوّ الخزائن وبيوت الأموال من الدّرهم والدّينار، فإنّه كان يخرج كلّ ما حمل إليه منها. وقالت الطائفة الأخرى: الرأي أن نصابر البلد ونضايقه، فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم، ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب وأخذنا باقي البلاد صفواً عفواً.

فبقي صلاح الدّين متردّداً بين الرحيل والإقامة، فلمّا رأى مَن يَرى الرحيل إقامته أخلّ بما رُدّ إليه من المحاربة والرمي بالمنّجنيق، واعتذروا بجراح رجالهم، وأنّهم قد أرسلوا بعضهم ليُحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابّهم والأقوات لهم، إلى غير ذلك من الأعذار، فصاروا مقيمين بغير قتال، فاضطرّ إلى الرحيل، فرحل عنها آخر شوّال، وكان أوّل كانون الأوّل، إلى عكّا، فأذِن للعساكر جميعها بالعود إلى أوطانهم

---

(١) في (أ): «يجتمعون».

والاستراحة في الشتاء، والعود في الربيع، فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها، وعساكر الشام، وعساكر مصر، وبقي حلقته الخاص مقيماً[1] بعكّا، فنزل بقلعتها، وردّ أمر البلد إلى عزّ الدّين جورديك، وهو من أكابر المماليك النوريّة، جمع الدّيانة والشجاعة وحُسْن السيرة[2].

ذكر فتح هُونين

لمّا فتح صلاح الدّين تِبنين امتنع مَن بهُونِين من تسليمها، وهي من أحصن القلاع وأمنعها[3]، فلم يرَ التعريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها، بل سيّر إليها جماعة من العسكر والأمراء فحصروها، ومنعوا من حمل الميرة إليها؛ واشتغل بما تقدّم ذِكره من فتح عسقلان والبيت المقدّس وغير ذلك، فلمّا كان يحاصر مدينة صور أرسل مَن فيها يطلبون الأمان، فأمّنهم، فسلّموا، ونزلوا منها فوفى لهم بأمانهم[4].

ذكر حصر صفد وكوكب والكرك

لمّا سار صلاح الدّين إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب، وهي مطلّة على الأردن، من يحصرها، ويحفظ الطريق للمجتازين لئلاّ ينزل مَن به من الفرنج يقطعونه، وسيّر طائفة أخرى من العسكر أيضاً إلى قلعة صفد فحصروها، وهي مُطلّة على مدينة طبريّة.

وكان حصن كوكب للإسبتار، وحصن صفد للداويّة، وهما قريبان من حِطّين، موضع المصافّ، فلجأ إليها جمع ممّن سلِم من الداويّة والإسبتار فحموهما، فلمّا حصرهما المسلمون استراح النّاس من شرّ مَن فيهما، واتّصلت الطرق حتّى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف.

وكان مقدّم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميراً يقال له سيف الدّين، وهو أخو جاولي الأسديّ، وكان شهماً شجاعاً، يرجع إلى دين وعبادة، فأقام عليه إلى آخر شوّال، وكان أصحابه يحرسون نُوَباً مرتّبة، فلمّا كان آخر ليلة من شوّال غفل الذي

---

(١) في الأوربية: «مقيم».

(٢) نهاية الأرب ٢٨/٤٠٦، ٤٠٧ (باختصار شديد)، النوادر السلطانية ٨٤، الفتح القسّي ١٥٣ وما بعدها.

(٣) في الأوربية: «وأمنع».

(٤) مفرّج الكروب ٢/٢٤٧، نهاية الأرب ٢٨/٤٠٧، الفتح القسّي ١٧٠.

كانت نوبته[1] في الحراسة، وكان قد صلّى وِرْده من اللّيل إلى السَّحَر، وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق، والريح والمطر، فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلاّ والفرنج قد خالطوهم بالسيوف، ووضعوا السلاح فيهم، فقتلوهم أجمعين، وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعتهم، فقووا بذلك قوّة عظيمة أمكنتهم أن يحفظوا قلعتهم إلى أن أخذت أواخر سنة أربعٍ وثمانين [وخمسمائة]، على ما سنذكره إن شاء الله.

وأتى الخبر إلى صلاح الدّين بذلك، عند رحيله عن (صور، فعظُم)[2] ذلك عليه، مضافاً إلى ما ناله من أخذ شوانيه ومَن فيها، ورحيله عن صور، ثمّ رتّب على حصن كوكب[3] الأميرِ قايماز النجميّ في جماعة أخرى من الأجناد، فحصروها[4].

ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدّم

في هذه السنة، يوم عَرَفة، قُتل شمس الدّين محمّد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم بعرفات، وهو أكبر الأمراء الصلاحيّة، وقد تقدّم من ذِكره ما فيه كفاية.

وسبب قتله أنّه لمّا فتح المسلمون البيت المقدّس طلب إذناً من صلاح الدّين ليحجّ ويُحْرِم من القدس، ويجمع في سنّه بين الجهاد والحجّ وزيارة الخليل، عليه السلام، وما[5] بالشام من مشاهد الأنبياء، وبين زيارة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أجمعين، فأذِن له. وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجّاج بالشام الخلق العظيم من البلاد: العراق، والموصل، وديار بكر، والجزيرة، وخِلاط، وبلاد الروم، ومصر، وغيرها، ليجمعوا بين زيارة البيت المقدّس ومكّة، فجعل ابن المقدّم أميراً عليهم فساروا حتّى وصلوا إلى عرفات سالمين، ووقفوا في تلك المشاعر، وأدّوا الواجب والسُّنّة.

فلمّا كان عشيّة عَرَفَة تجهّز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات، فأمر بضرب كوساته التي هي أمارة الرحيل، فضربها أصحابه، فأرسل إليه أمير الحاجّ العراقيّ،

---

(١) في الأوربية: «غفل الذين كانت نوبتهم».
(٢) من (أ).
(٣) في الباريسية والنسخة ٧٤٠ «صور».
(٤) النوادر السلطانية ٨٤، الفتح القسّي ١٧٧، مفرّج الكروب ٢/ ٧٢، نهاية الأرب ٢٨/ ٤١١.
(٥) في الأوربية: «ومن».

وهو مجير الدّين طاش تَكين، ينهاه عن الإفاضة من عرفات قبله، ويأمره بكفّ أصحابه عن ضرب كوساته، فأرسل إليه: إنّي ليس لي معك تعلّق، أنت أمير الحاجّ العراقيّ، وأنا أمير الحاجّ الشاميّ، وكلّ منّا يفعل ما يراه ويختاره؛ وسار ولم يقف، ولم يسمع قوله، فلمّا رأى طاش تكين إصراره على مخالفته ركب في أصحابه وأجناده، وتبعه من غوغاء الحاجّ العراقيّ وبطّاطيهم، وطمّاعتهم، العالم الكثير، والجمّ الغفير، وقصدوا حاجَ الشام مهوّلين عليهم، فلمّا قربوا منهم خرج الأمر من الضبط، وعجزوا عن تلافيه، فهجم طمّاعة العراق على حاجّ الشام وفتكوا فيهم، وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم، إلاّ أنّهن رددن عليهم، وجُرح ابن المقدّم عدّة جراحات، وكان يكفّ أصحابه عن[1] القتال، ولو أذِن لهم لانتصف منهم وزاد، لكنّه راقب الله تعالى، وحرمة المكان واليوم، فلمّا أُثخن بالجراحات أخذه طاش تكين إلى خيمته، وأنزله عنده ليمرّضه ويستدرك الفارط في حقّه، وساروا تلك اللّيلة من عرفات، فلمّا كان الغد مات بمِنى، ودُفن بمقبرة المُعلّى، ورُزق الشهادة بعد الجهاد، وشهود فتح البيت المقدّس، رحمه الله تعالى[2].

ذكر قوّة السلطان طغرل على قزل

في هذه السنة قوي أمر السلطان طُغْرل، وكثُر جَمْعه، وملك كثيراً من البلاد، فأرسل قزل إلى الخليفة يستنجده، ويخوّفه من طُغْرل، ويبذل من نفسه الطاعة والتّصرّف على ما يختارونه، وأرسل طُغْرل رسولاً إلى بغداد يقول: أريد أن يتقدّم الدّيوان بعمارة [دار] السلطنة لأسكنها إذا وصلتُ؛ فأكرم رسول قزل ووعده بالنّجدة، وردّ رسول السلطان طُغْرل بغير جواب، وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة، فهُدمت إلى الأرض وعُفّي أثرها.

ذكر ملك شرستي[3] من الهند وغيرها وانهزام المسلمين بعدها

في آخر هذه السنة سار شهاب الدّين الغوريّ، ملك غزنة، إلى بلاد الهند، وقصد بلاد أجمير[4]، وتعرّف بولاية السوالك، واسم ملكهم كولة، وكان شجاعاً

---

(١) في الأوربية: «من».

(٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (بتحقيقنا) ٢/ ٣٧٠.

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «سرستي».

(٤) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «احمير» و «حمير».

شهماً؛ فلمّا دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة[1]، وهي حصن منيع عامرٌ، وملكوا شرستي، وملكوا كوّة رام[2].

فلمّا سمع ملكهم جمع العساكر فأكثر، وسار إلى المسلمين، فالتقوا، وقامت الحرب على ساق، وكان مع الهند أربعة عشر فيلاً، فلمّا اشتدّت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم، فقال لشهاب الدّين بعض خواصّه: قد انكسرت الميمنة والميسرة، فانجُ بنفسك لا يهلك المسلمون؛ فأخذ شهاب الدّين الرمح وحمل على الهنود، فوصل إلى الفِيَلة، فطعن فيلاً منها في كتفه، وجُرْح الفيل لا يندمل، فلمّا وصل شهاب الدّين إلى الفِيَلة زَرَقَه بعض الهنود بحربة، فوقعت الحربة في ساعده، فنفذت الحربة من الجانب[3] الآخر، فوقع حينئذٍ إلى الأرض، فقاتل عليه أصحابه ليخلّصوه، وحرصه الهنود على أخْذه، وكان عنده حرب لم يُسمع بمثلها، وأخذه أصحابه فركّبوه فرسه وعادوا به منهزيمن، فلم يتبعهم الهنود، فلمّا أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أُغمي على شهاب الدّين من كثرة خروج الدّم، فحمله الرجال على أكتافهم في محفّة اليد أبعة وعشرين فرسخاً، فلمّا وصل إلى لهاوور أخذ الأمراء الغوريّة، وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا، وعلّق على كلّ واحد منهم عليق شعير، وقال: أنتم دوابّ ما أنتم أمراء! وسار إلى غزنة، وأمر بعضهم فمشى إليها ماشياً، فلمّا وصل إلى غزنة أقام بها ليستريح النّاس، ونذكر ما فعله بملك الهند الذي هزمه سنة ثمانٍ وثمانين [وخمسمائة] إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، قُتل مجد الدّين أبو الفضل بن الصاحب، وهو أستاذ دار الخليفة، أمر الخليفة بقتله، وكان متحكّماً في الدولة، ليس للخليفة معه حكم؛ وكان هو القيّم بالبَيعة له، وظهر له أموال عظيمة، أخذ جميعها، وكان حَسَن السيرة عفيفاً عن الأموال، وكان الذي سعى به إنسان من أصحابه وصنائعه، يقال له عُبيد الله بن يونس، فسعى به إلى الخليفة، وقبّح آثاره، فقبض عليه وقتله.

---

(١) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «سربده».

(٢) في الباريسية: «اكوم رام»، وفي النسخة ٧٤٠ «اكوه دام».

(٣) في (أ): «فنفذت إلى الجانب».

وفيها، في ربيع الآخر، وقع حريق في الحظائر ببغداد، واحترقت أحطاب كثيرة، وسببه أنّ فقيهاً بالمدرسة النظاميّة كان يطبخ طعاماً يأكله. فغفل عن النّار والطبيخ، فعلقت النّار واتّصلت إلى الحظائر، فاحترقت جميعها، واحترق درب السلسلة وغيره ممّا يجاوره.

وفيها، في شوّال، استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفّر عُبيد الله بن يونس، ولقّبه جلال الدّين، ومشى أرباب الدّولة في ركابه، حتى قاضي القضاة، وكان ابن يونس من شهوده، وكان يمشي ويقول: لعن الله طول العمر.

[الوَفَيَات]

وفيها، في المحرّم، تُوفّي عبد المغيث[1] بن زهير الحَربيّ ببغداد، وكان من أعيان الحنابلة، قد سمع الحديث الكثير، وصنّف كتاباً في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب، وقد ردّ عليه أبو الفَرَج بن الجوزيّ، وكان بينهما عداوة.

وفيها تُوفّي قاضي القضاة أبو الحسن بن الدّامغانيّ[2]، ووليَ قضاء القضاة للمقتفي بعد موت الزّينبيّ، ثمّ للمستنجد بالله، ثمّ عُزل، ثمّ أُعيد إلى المستضيء بأمر الله.

وفيها تُوفّي الوزير جلال الدّين[3] أبو الحسن عليّ بن جمال الدّين أبي جعفر محمّد بن أبي منصور وزير صاحب الموصل، وهو الجواد ابن الجواد، وقد ذكرنا من أخباره وأخبار أبيه ما يُعلم به محلّهما، وحُمل إلى مدينة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فدُفن بها عند أبيه عليّ بن خطّاب بن ظَفَر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر، وكان من الأولياء أرباب الكرامات، وصحبتُه أنا مُدّةً، فلم أرَ مثله حسن خُلُق وسَمْتٍ وكرم وعبادة، رحمه الله.

وفيها وُلدت امرأة من سواد بغداد بنتاً لها أسنان.

وفيها تُوفّي نصر بن فتيان[4] بن مطر أبو الفتح بن المنّي الفقيه الحنبليّ، لم يكن لهم مثله، رحمه الله.

---

(١) انظر عن (عبد المغيث) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ١٥٥ ـ ١٥٧ رقم ٩١ .

(٢) هو: علي بن أحمد بن علي بن أبي عبد الله. انظر عنه في: تاريخ الإسلام ١٥٧، ١٥٨ رقم ٩٤.

(٣) انظر عن (الوزير هلال الدين) في: تاريخ الإسلام ١٥٨ رقم ٩٥.

(٤) انظر عن (نصر بن فتيان) في: تاريخ الإسلام ١٦٦ ـ ١٦٧ رقم ١١٠ .

٥٨٤

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدّين كوكب

في هذه السنة، في المحرّم، انحسر الشتاء، فسار صلاح الدين من عكّا فيمن تخلّف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب، فحصرها، ونازلها، ظنّاً منه أنّ مُلكها سَهل[١] وأنّ أخذها، وهو في قلّة من العسكر، متيسّر، فلمّا رآها عالية منيعة[٢] [أدرك أن] الوصول إليها متعذّر، وكان عنده منها ومن صفَد والكَرَك المقيم المقعد، لأنّ البلاد الساحليّة، من عكّا إلى جهة الجنوب، كانت قد مُلك جميعها، ما عدا هذه الحصون، وكان يختار أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه، ويقسّم همّه، ويحتاج إلى حفظه، ولئلاّ ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم.

فلمّا حصر كوكب، ورآها منيعة، يُبطىء مُلكها وأخذها، رحل عنها، وجعل عليها قايماز النَّجْميّ مستديماً لحصاره، وكان رحيله عنها في ربيع الأول، وأتاه رسل الملك قلج أرسلان، وقزل أرسلان وغيرهما، يهنّئونه بالفتح والظفر، وسار من كوكب إلى دمشق، ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى البلاد جميعها باجتماع العساكر، وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل[٣].

ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج

لمّا أراد صلاح الدّين المسير عن دمشق حضر عند القاضي الفاضل مودّعاً له

---

(١) في الأوربية: «سهلاً».

(٢) في الأوربية: «منيفة»

(٣) الفتح القسّي ٢٠٤، والنوادر السلطانية ٨٤، وزبدة الحلب ٣/١٠١، والمختصر في أخبار البشر ٣/٧٤، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/٩٩، والبداية والنهاية ١٢/٣٢٩، والإعلام والتبيين ٣٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/٣١١، والسلوك ج ١، ق ١/٩٩، وشفاء القلوب ١٥٣، وتاريخ ابن سباط ١/١٨٣.

ومستشيراً، وكان مريضاً، وودّعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الأوّل إلى حمص، فنزل على بحيرة قَدَس، غربيّ حِمص، وجاءته العساكر: فأوّل مَن أتاه من أصحاب الأطراف عِماد الدّين زنكي بن مودود بن آقسنْقر، صاحب سِنجَار، ونَصِيبِين، والخَابور، وتلاحقت العساكر من الموصل، وديار الجزيرة، وغيرها. فاجتمعت عليه، وكثُرت عنده، فسار حتّى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي، وكنتُ معه حينئذٍ، فأقام يومَيْن، وسار جريدة، وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن، ودخل إلى بلد الفرنج، فأغار على صافيثا، والعُرَيمة، ويَحْمور، وغيرها من البلاد والولايات، ووصل إلى قرب طرابُلُس، وأبصر البلاد، وعرف من أين يأتيها، وأين يسلك منها، ثمّ عاد إلى معسكره سالماً.

وقد غنم العسكر من الدّوابّ، على اختلاف أنواعها، ما لا حدّ له، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر[1].

ذكر فتح جَبلة

لمّا أقام صلاح الدّين تحت حصن الأكراد، أتاه قاضي جَبلَة، وهو منصور بن نبيل، يستدعيه إليها ليسلّمها إليه، وكان هذا القاضي عند بيمُنْد، صاحب أنطاكية وجَبلَة، مسموع القول مقبول الكلمة، له الحرمة الوافرة، والمنزلة العالية، وهو يحكم على جميع المسلمين، بجبلة ونواحيها، على ما يتعلّق بالبيمند، فحملته الغيرة للدّين على قصد السلطان، وتكفّل له بفتح جَبلَة ولاذقيّة والبلاد الشماليّة، فسار صلاح الدّين معه رابع جُمادى الأولى، فنزل بأنْطَرطُوس سادسه، فرأى الفرنج قد أَخْلوا المدينة، واحتموا في بُرجَيْن حصينيْن، كلّ واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع، فخرّب المسلمون دُورهم ومساكنهم وسور البلد، ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم.

وكان الدّاوية بأحد البرجَيْن، فحصرهما صلاح الدّين، فنزل إليه مَن في أحد البرجَيْن بأمان وسلّموه، فأمّنهم، وخرّب البرج وألقى حجارته في البحر، وبقي الذي فيه الدّاويّة لم يسلّموه، وكان معهم مقدّمهم الذي أسره صلاح الدّين يومَ المصافّ، وكان قد أطلقه لمّا ملك البيت المقدّس، فهو الذي حفظ هذا الحصن، فخرّب صلاح الدّين ولاية أنطرطوس، ورحل عنها وأتى مَرَقِيَّة، وقد أخلاها أهلها، ورحلوا عنها،

---

(١) المصادر السابقة، وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج ١/ ٥٣٦، ٥٣٧.

وساروا إلى المرقب، وهو من حصونهم التي لا تُرام، ولا يحدّث أحد نفسه بملكه لعُلُوّه وامتناعه، وهو للإسبتار، والطريق تحته، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة، والبحر عن يساره، والطريق مضيق لا يسلكه إلاّ الواحد بعد الواحد.

فاتّفق أنّ صاحب صِقليّة من الفرنج قد سيّر نجدة إلى فرنج الساحل في ستّين قطعة من الشواني، وكانوا بطرابلس، فلمّا سمعوا بمسير صلاح الدّين جاؤوا ووقفوا في البحر، تحت المرقب، في شوانيهم، ليمنعوا مَن يجتاز بالسهام، فلمّا رأى صلاح الدّين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات، فصُفّتْ على الطريق ممّا يلي البحر من أوّل المضيق إلى آخره، وجعل وراءها الرماة، فمنعوا الفرنج من الدنوّ إليهم، فاجتاز المسلمون عن آخرهم، حتّى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة ثامن عشر جُمادى الأولى، وتسلّمها وقت وصوله.

وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل، فلمّا وصل صلاح الدّين رفع أعلامه على سورها وسلّمها إليه، وتحصّن الفرنج الذين كانوا بها بحصنها، واحتموا بقلعتها، فما زال قاضي جبلة يخوّفهم ويرغّبهم، حتّى استنزلهم بشرط الأمان، وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائن المسلمين من أهل جبلة.

وكان بيمند، صاحبها، قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي[1] جبلة، وتركهم عنده بأنطاكية، فأخذ القاضي رهائن الفرنج فأنزلهم عنده حتى أطلق بيمند رهائن المسلمين فأطلق المسلمون رهائن الفرنج، وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدّين بطاعة أهله، وهو من أمنع الجبال وأشقّها مسلكاً، وفيه حصن يُعرف بِبِكَسرَائِيلَ[2]، بين جبلة ومدينة حماة، فملكه المسلمون، وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكر، وكان الناس يلقون شدّة في سلوكه. وقرّر صلاح الدّين أحوال جبلة، وجعل فيها لحفظها الأميرَ سابق الدّين عثمان بن الدّاية، صاحب شَيْزَر، وسار عنها[3].

---

(١) في الأوربية: «ومسلمين».

(٢) في (ب): «الكسرابل».

(٣) أنظر عن (فتح جبلة) في: الفتح القسّي ٢٣٣، ٢٣٤، والنوادر السلطانية ٨٧ ـ ٨٩، وتاريخ الزمان ٢١٣، وزبدة الحلب ٣/١٠٢، ١٠٣، ومفرّج الكروب ٢/٢٥٨، والروضتين ٢/٢٧، ومعجم البلدان ٢/٢٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٤، والدر المطلوب ٩٥، والمغرب في حلي المغرب ١٥٦، ودول الإسلام ٢/ ٩٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/٩٩، والإعلام والتبيين ٣٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣١٢، والسلوك ج ١، =

ذكر فتح لاذقيّة

لمّا فرغ السلطان من أمر جَبَلة، سار عنها إلى لاذقيّة، فوصل إليها في الرابع والعشرين من جُمادى الأولى، فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها، وصعدوا إلى حصنيْن لها على الجبل فامتنعوا بهما، فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتيْن اللتيْن فيهما الفرنج، وزحفوا إليهما، ونقبوا السُّور ستّين ذراعاً، وعلّقوه، وعظُم القتال، واشتدّ الأمر عند الوصول إلى السور، فلمّا أيقن[1] الفرنج بالعطب، ودخل إليهم قاضي جبلة فخوّفهم من المسلمين، طلبوا الأمان، فأمّنهم صلاح الدّين، ورفعوا الأعلام الإسلاميّة إلى الحصنيْن، وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها.

وكانت عمارة اللاذقيّة من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرّب المسلمون كثيراً منها، ونقلوا رخامها، وشعّثوا كثيراً من بِيَعها التي قد غُرم على كلّ واحدةٍ منها الأموال الجليلة المقدار، وسلّمها إلى ابن أخيه تقيّ الدّين عمر، فعمّرها، وحصّن قلعتها، حتّى إذا رآها اليوم مَن رآها قبلُ ينكرها، فلا يظنّ أنّ هذه تلك؛ وكان عظيم الهمّة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها، كما فعل بقلعة حماة[2].

ذكر حال أسطول صِقليّة

لمّا نازل صلاح الدّين لاذقيّة [جاء أسطول صَقَليّة] الذي تقدّم ذِكره، فوقف بإزاء ميناء لاذقيّة، فلمّا سلّمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدّين، عزم أهل هذا الأسطول على أخذ مَن يخرج منها من أهلها غيظاً وحنقاً، حيث سلّموها سريعاً، فسمح بذلك أهل لاذقيّة، فأقاموا، وبذلوا الجزية، وكان سبب مقامهم.

ثمّ إنّ مقدّم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده، فأمّنه، وحضر [وقبّل] الأرض بين يديه، وقال ما معناه: إنّك سلطان رحيم وكريم، وقد فعلتَ بالفرنج ما فعلت فذلّوا، فاتركهم يكونون مماليكك وجُندك تفتح بهم البلاد والممالك، وتردّ عليهم بلادهم، وإلاّ جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظُم

= ق ١/ ١٠٠، وشفاء القلوب ١٥٤، ومشارع الأشواق ٢/ ٩٣٧، ٩٣٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٥٤، وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري ١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

(١) في (ب): «فلما نقب أيقن».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٥، مشارع الأشواق ٢/ ٩٣٨.

عليك الأمر ويشتدّ الحال.

فأجابه صلاح الدّين بنحوٍ من كلامه من إظهار القوّة والاستهانة بكلّ مَن يجيء من البحر، وأنّهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر؛ فصلّب على وجهه، ورجع إلى أصحابه.

ذكر فتح صهيون وعدّة من الحصون

ثمّ رحل صلاح الدّين عن لاذقيّة في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وقصد قلعة صهيون، وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء، صعبة المرتقى، على قرنة جبل، يطيف بها وادٍ عميقٌ، فيه ضيق في بعض المواضع، بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن، إلاّ أنّ الجبل متّصل بها من جهة الشمال، وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يُرى قعْرُه، وخمسة أسوار منيعة، فنزل صلاح الدّين على هذا الجبل الملتصق بها، ونصب عليه المجانيق ورماها، وتقدّم إلى ولده الظاهر، صاحب حلب، فنزل على المكان الضيّق من الوادي، ونصب عليه المجانيق أيضاً، فرمى الحصن منه.

وكان معه من الرجّالة الحلبيّين[1] كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة، ودام رشق السهام من قِسِيّ اليد، والجرخ، والزنبورك، والزيار، فجرح أكثر مَن بالحصن، وهم يُظهرون التّجلّد والامتناع، وزحف المسلمون إليهم ثاني جُمادى الآخرة، فتعلّقوا بقرنةٍ من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها، فتسلّقوا منها بين الصخور، حتّى التحقوا بالسور الأوّل فقاتلوهم عليه حتّى ملكوه، ثمّ إنّهم قاتلوهم على باقي الأسوار فملكوا منها ثلاثة وغنِموا ما فيها من أبقار ودوابّ وذخائر وغير ذلك، واحتمى الفرنج بالقلّة التي للقلعة، فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان، فلم يُجِبهم صلاح الدّين إليه، فقرّروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدّس، وتسلّم الحصن وسلّمه إلى أمير يقال له ناصر الدّين منكوبرس[2]، صاحب قلعة أبي قُبيس، فحصّنه وجعله من أحصن الحصون.

ولمّا ملك المسلمون صِهيون تفرّقوا في تلك النواحي، فملكوا حصن بَلاطُنُوس[3]، وكان مَن به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً، وملك أيضاً

---

(١) في (أ): «الجبليين».

(٢) في تاريخ الإسلام ٣٥ «منكورس».

(٣) في (أ): «بلاطيس»، والمشهور: «بلاطنس».

حصن العيذُو[1]، وحصن الجماهرتين[2]، فاتّسعت[3] المملكة الإسلامية بتلك الناحية، إلاّ أنّ الطريق إليها من البلاد الإسلاميّة على عقبة بِكْسِرَائِيل شاقّ شديد، لأنّ الطريق السهلة كانت غير مسلوكة، لأنّ بعضها بيد الإسماعيليّة، وبعضها بيد الفرنج[4].

ذكر فتح حصن بَكَاس والشُّغْر

ثمّ سار صلاح الدّين عن صِهيون، ثالث جُمادى الآخرة، فوصل إلى قلعة بَكَاسَ [فرأى الفرنج قد أخلوها، وتحصّنوا بقلعة الشُّغْر، فملك قلعة بكاس][5] بغير قتال، وتقدّم إلى قلعة الشُّغْر وحصرها، وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوك إلى لاذقيّة وجَبَلَة، والبلاد التي افتتحها صلاح الدّين من بلاد الشام الإسلاميّة.

فلمّا نازلها رآها منيعة حصينة لا تُرام، ولا يوصل إليها بطريق من الطرق، إلاّ أنّه أمر بمزاحفتهم ونصْب منجنيق عليهم، ففعلوا ذلك، ورمى بالمنجنيق، فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شيء إلاّ القليل الذي لا يُؤذي، فبقي المسلمون عليه أيّاماً لا يرون فيه طمعاً، وأهله غير مهتمّين بالقتال لامتناعهم عن ضررٍ يتطرّق إليهم، وبلاء ينزل عليهم.

فبينما صلاح الدّين جالس، وعنده أصحابه، وهم في ذِكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها. قال بعضهم: هذا الحصن كما قال الله تعالى **﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾**[6] فقال صلاح الدّين: أو يأتي الله بنصرٍ من عنده وفتح.

فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجيّ ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدّين، فأجيب إلى ذلك، ونزل رسول، وسأل إنظارهم ثلاثة

---

(1) في الباريسية: «العدو»، وفي النسخة ٧٤٠ «العبدو»، وفي طبعة صادر ١٢/ ١١ «العيدو» بالدال المهملة، والمثبت هو الصحيح بالذال المعجمة، بكسر أوله وسكون ثانيه. قال ياقوت: قلعة بنواحي حلب.

(2) هكذا في الأصل والمطبوع. وفي (معجم البلدان ٢/ ١٦٠): «الجماهيرية» حصن قرب جبلة من سواحل الشام. وفي الفتح القسّي ٢٢٤، وزبدة الحلب ٣/ ١٠٤ «الجماهريين».

(3) في الأوربية: «اتَّسَقت».

(4) الفتح القسّي ٢٢٤، تاريخ الإسلام (٥٨٤هـ.) ص ٣٥، مشارع الأشواق ٢/ ٥٣٨.

(5) ما بين الحاصرتين من الباريسية. و «بكاس» بتخفيف الكاف.

(6) سورة الكهف، الآية ٩٧.

أيّام، فإن جاءهم من يمنعهم، وإلاّ سلّموا القلعة بما فيها[1] من ذخائر ودوابّ وغير ذلك، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به.

فلمّا كان اليوم الثالث سلّموها إليه، واتّفق يوم الجمعة سادس عشر جُمادى الآخرة؛ وكان سبب استمهالهم أنّهم[2] أرسلوا إلى البيمُنْد، صاحب أنطاكية، وكان هذا الحصن له، يعرّفونه أنّهم محصورون، ويطلبون منه أن يرحّل[3] عنهم المسلمين، فإن فعل، وإلاّ سلّموها، وإنّما فعلوا ذلك[4] لرُعبٍ قذفه الله تعالى في قلوبهم، وإلاّ فلو أقاموا الدّهر الطويل لم يصل إليهم أحد، ولا بلغ المسلمون منهم غَرَضاً؛ فلمّا تسلّم صلاح الدّين الحصن سلّمه إلى أميرٍ يقال له قلج، وأمره بعمارته، ورحل عنه.

ذكر فتح سَرمِينِيّة

لمّا كان صلاح الدّين مشغولاً بهذه القلاع والحصون، سيّر ولده الظاهر غازي، صاحب حلب، فحصر سَرمِينِيّة[5]، وضيّق على أهلها[6]، واستنزلهم على قطيعةٍ قرّرها عليهم، فلمّا أنزلهم، وأخذ منهم المقاطعة، هدم الحصن وعفّى أثره وعالي بنيانه.

وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجمّ الغفير، فأُطلقوا، وأُعطوا كسوة ونفقة، وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.

واتّفق أنّ فتح هذه المدن والحصون جميعها من جَبَلة إلى سَرمينيّة، مع كثرتها، كان في ستّ جُمع مع أنّها في أيدي أشجع الناس وأشدّهم عداوةً للمسلمين، فسبحان مَن إذا أراد أن يسهّل الصعب فعل؛ وهي جميعها من أعمال أنطاكية، ولم يبق لها سوى القُصير، وبَغْراسَ، ودرب ساك، وسيأتي ذِكرها إن شاء الله تعالى في مكانه.

ذكر فتح بَرْزَية

لمّا دخل صلاح الدّين من قلعة الشغر سار إلى قلعة بَرْزَية، وكانت قد وُصفتْ

---

(١) في الأوربية: «فيه».

(٢) في (ب): «استمهالهم أنهم سبب صلحهم».

(٣) في (ب): «أن ينجدهم ويرحل».

(٤) في (ب): «وصالحوا وذلوا ذلك».

(٥) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ) ص ٣٦ «سرمانية»، وتحرّفت في (مشارع الأشواق ٢/٩٣٨) إلى: «شرمانية» بالشين المعجمة. وضبط محقّق الكتاب الشين بالضم، وهو غلط.

(٦) في الأوربية: «أهله».

له، وهي تقابل حصن أفامية، وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وعيون تتفجّر من جبل برزية وغيره، وكان أهلها أضرّ شيء على المسلمين، يقطعون الطريق، ويبالغون في الأذى، فلمّا وصل إليها نزل شرقيّها في الرابع والعشرين من جُمادى الآخرة، ثمّ ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه، فلم يجده إلاّ من جهة الغرب، فنصب له هناك [خيمة][1] صغيرة، ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع.

وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتَل من جهة الشمال والجنوب ألبتّة، فإنّها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتيْن الجهتيْن، وأمّا الجانب الشرقيّ فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل، لعُلُوّه وصعوبته، وأمّا جهة الغرب فإنّ الوادي المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعاً كثيراً، حتّى قارب القلعة، بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام، فنزله المسلمون ونصبوا عليه المجانيق، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقاً بطّلها.

ورأيتُ أنا من رأس جبل عالٍ يشرف على القلعة، لكنّه لا يصل منه شيء إليه، امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق، وهي التي بطّلت منجنيق المسلمين، فلمّا رأى صلاح الدّين أنّ المنجنيق لا ينتفعون به، عزم على الزحف، ومكاثرة أهلها بجموعه، فقسّم عسكره ثلاثة أقسام: يزحف قسم، فإذا تعبوا[2] وكلّوا عادوا وزحف القسم الثاني، فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث، ثمّ يدور الدّور مرّة بعد أخرى حتّى يتعب الفرنج وينصبوا، فإنّهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسّمون كذلك، فإذا تعبوا وأعيوا سلّموا القلعة.

فلمّا كان الغد، وهو السابع والعشرون من جُمادى الآخرة، تقدّم أحد الأقسام، وكان المقدّم عليهم عماد الدّين زنكي بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار، وزحفوا، وخرج الفرنج من حصنهم، فقاتلهم على فصيلهم، ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويّات والطارقيات، ومشوا إليهم حتّى قربوا إلى الجبل، فلمّا قاربوا الفرنج عجزوا عن الدُّنُوّ منهم لخشونة المُرْتَقَى، وتسلّط الفرنج عليهم، لعُلُوّ مكانهم، بالنّشّاب والحجارة، فإنّهم كانوا يُلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل، فلا يقوم لها شيء.

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) في (أ): «فإذا نصبوا وضجروا».

فلمّا تعب هذا القسم انحدروا، وصعِد القسم الثاني، وكانوا جلوساً ينتظرونهم، وهم حلقة صلاح الدّين الخاصّ، فقاتلوا قتالاً شديداً، وكان الزمان حَرّاً شديداً، فاشتدّ الكرْب على الناس، وصلاح الدّين في سلاحه يطوف عليهم ويحرّضهم، وكان تقيّ الدّين ابن أخيه كذلك، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثمّ تعبوا، ورجعوا.

فلمّا رآهم صلاح الدّين قد عادوا تقدّم إليهم وبيده جماق يردّهم، وصاح في القسم الثالث، وهم جلوس ينتظرون نوبتهم، فوثبوا مُلبّين، وساعدوا إخوانهم، وزحفوا معهم، فجاء الفرنج ما لا قِبَل لهم به، وكان أصحاب عماد الدّين قد استراحوا، فقاموا أيضاً معهم، فحينئذٍ اشتدّ الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا قد اشتدّ تعبهم ونَصَبُهم، فظهر عجزهم عن القتال، وضعفهم عن حمل السلاح لشدّة الحرّ والقتال، فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن، فدخل المسلمون معهم.

وكان طائفة قليلة في الخيام، شرقيّ الحصن، فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب، لأنّهم لا يرون فيه مقاتلاً، وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدّين، فصعِدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهم مانع، فصعِدوا أيضاً الحصنَ من الجهة الأخرى، فالتقوا مع المسلمين الدّاخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عَنوةً وقهراً، ودخل الفرنج القلّة التي للحصن، وأحاط بها المسلمون، وأرادوا نقبها.

وكان الفرنج قد رفعوا مَن عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلّة، وأرجلهم في القيود والخشب المنقوب، فلمّا سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبّروا في سطح القلّة، وظنّ الفرنج أنّ المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر، فملكها المسلمون عَنوةً، ونهبوا ما فيها، وأسروا وسبوا مَن فيها، وأخذوا صاحبها وأهله، وأمسَتْ خالية لا ديّار بها، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقتْ.

ومن أعجب ما يُحكى من السلامة أنني رأيتُ رجلاً من المسلمين على هذا الحصن قد جاء من طائفة من المؤمنين شماليّ القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبيّ القلعة، وهو يعدو في الجبل عرضاً، فأُلقيتْ عليه الحجارة، وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه، فنزل عليه، فناداه الناس يحذّرونه، فالتفت ينظر ما الخبر، فسقط على وجهه من عثرة، فاسترجع الناس، وجاء الحجر إليه، فلمّا قاربه وهو منبطحٌ على

وجهه، لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل، فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض، وجاز الرجل، ثمّ عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضررٌ، وقام يعدو حتّى لحِق بأصحابه، فكان سقوطه سبب نجاته فتعِسَت أمّ الجبان.

وأمّا صاحب بَرْزية، فإنّه أُسر هو وامرأته وأولاده، ومنهم بنت له معها زوجها، فتفرّقهم العسكر، فأرسل صلاح الدّين وبحث عنهم واشتراهم، وجمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيّرهم إليها. وكانت امرأة صاحب بَرْزية أخت امرأة بيمُنْد، صاحب أنطاكية، وكانت تراسل صلاح الدّين وتهاديه، وتُعلمه كثيراً عن الأحوال التي تؤثر، فأطلق[1] هؤلاء لأجلها[2].

ذكر فتح درب ساك

لمّا فتح صلاح الدّين حصن بَرْزية رحل عنه في الغد، فأتى جسر الحديد، وهو على العاصي، بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه حتّى وافاه مَن تخلّف عنه من عسكره، ثمّ سار عنه إلى قلعة درب ساك، فنزل عليها ثامن رجب، وهي من معاقل الدّاويّة الحصينة وقلاعهم التي يدّخرونها لحماياتهم عند نزول الشدائد.

فلمّا نزل عليها نصب المجانيق، وتابع الرمي بالحجارة، فهدمت من سورها شيئاً يسيراً، فلم يُبال مَن فيه بذلك، فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها، فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها، وكشفوا الرجال عن سورها، وتقدّم النقّابون فنقبوا منها برجاً وعلّقوه، فسقط واتّسع المكان الذي يريد المقاتلة [أن] يدخلوا منه، وعادوا يومهم ذلك، ثمّ باكروا الزحف من الغد.

وكان مَن فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه، فصبروا، وأظهروا الجَلَد، وهم ينتظرون وصول جوابه إمّا بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنهم، وإمّا بالتّخلّي عنهم ليقوم عذرهم في التّسليم، فلمّا علموا عجزه عن نُصرتهم، وخافوا

---

(١) في (أ): «يؤثر علمها فأطلق». وفي (ب): «تؤثّر عليها».

(٢) أنظر عن (فتح برزية) في: النوادر السلطانية ٩٢، والفتح القسّي ٢٤٨ ـ ٢٥٤، وزبدة الحلب ٣/ ١٠٥، ومفرّج الكروب ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧، والمغرب في حلي المغرب ١٥٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٥، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٠٨، ودول الإسلام ٢/ ٩٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٠ وفيه «بدرية» وهو تصحيف، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣١٤، ٣١٥، وشفاء القلوب ١٥٦، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٨٦.

هجوم المسلمين عليها، وأخذهم بالسيف، وقتلهم وأسرهم، ونهب أموالهم، طلبوا الأمان، فأمّنهم على شرط [أن] لا يخرج أحد إلاّ بثيابه التي عليه بغير مال، ولا سلاح، ولا أثاث بيت، ولا دابّة، ولا شيء ممّا بها، ثمّ أخرجهم منه وسيّرهم إلى أنطاكية، وكان فتحه تاسع عشر رجب[1].

ذكر فتح بَغْرَاس

ثمّ سار عن درب ساك إلى قلعة بَغْراس، فحصرها، بعد أن اختلف أصحابه في حصرها، فمنهم مَن أشار به، ومنهم مَن نهى عنه وقال: هو حصن حصين، وقلعة منيعة، وهو بالقرب من أنطاكية، ولا فرق بين حصره وحصرها، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليَزَك مقابل أنطاكية، فإذا كان الأمر كذلك قلّ المقاتلون عليها، ويتعذّر حينئذٍ الوصول إليها.

فاستخار الله تعالى وسار إليها، وجعل أكثر عسكره يَزَكاً مقابل أنطاكية، يُغيرون على أعمالها، وكانوا حَذِرين من الخوف من أهلها، إن غفلوا، لقربهم منها، وصلاح الدّين في[2] بعض أصحابه على القلعة يقاتلها، ونصب المجانيق، فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوّها وارتفاعها، فغلب على الظّنون تعذّر فتحها وتأخّر مُلكها، وشقّ على المسلمين قلّة الماء عندهم ، إلاّ أنّ صلاح الدّين نصب الحياض، وأمر بحمل الماء إليها، فخفّف الأمر عليهم.

فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان ليحضر، فأجيب إلى ذلك، فأذِن له في الحضور، فحضر، وطلب الأمان لمن في الحصن حتّى يسلّموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك، فأجابهم إلى ما طلبوا؛ فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلاميّة، فرُفعت على رأس القلعة، ونزل مَن فيها، وتسلّم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح، وأمر صلاح الدّين بتخريبه،

---

(١) أنظر عن (فتح درب ساك) في: الفتح القسّي ٢٥٥، ٢٥٦، والنوادر السلطانية ٩٣، ومفرّج الكروب ٢/٢٦٨، والروضتين ٢/١٣٢، وزبدة الحلب ٣/١٠٦، والمغرب في حلي المغرب ١٥٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/٧٥، ونهاية الأرب ٢٨/٤٠٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٢، ودول الإسلام ٢/٩٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/٩٩، والإعلام والتبيين ٣٩ وفيه: «دربّاك»، والبداية والنهاية ١٢/٣٣٠، وصبح الأعشى ٤/١٢٢، وتاريخ ابن خلدون ٥/٣١٥، والنجوم الزاهرة ٦/٤١، وشفاء القلوب ١٥٦، ١٥٧، وتاريخ ابن سباط ١/١٨٧.

(٢) في (ب): «وبقي صلاح الدين في».

فخُرِّب، وكان ذلك مَضَرّة عظيمة على المسلمين، فإنّ ابن لِيون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته، وهو مجاوره، فجدّد عمارته وأتقنه، وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد، فتأذّى بهم السواد الذي بحلب، وهو إلى الآن بأيديهم[١].

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية

لمّا فتح صلاح الدّين بَغْرَاس عزم على التّوجّه إلى أنطاكية وحصرها، فخاف البيمُنْد صاحبها من ذلك، وأشفق منه، فأرسل إلى صلاح الدّين يطلب الهدنة، وبذل إطلاق كلّ أسير عنده من المسلمين، فاستشار مَن عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم، فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس ويستريحوا ويجدّدوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، واصطلحوا ثمانية أشهر، أولها: أوّل تشرين الأوّل، وآخرها: آخر أيار، وسيّر رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه، ويطلق مَن عنده من الأسرى.

وكان صاحب أنطاكية[٢]، في هذا الوقت، أعظم الفرنج شأناً، وأكثرهم مُلكاً، فإنّ الفرنج كانوا قد سلّموا إليه طرابُلُس، بعد موت القُمّص[٣]، وجميع أعمالها، مضافاً إلى ما كان له، لأنّ القُمّص لم يخلّف ولداً، فلمّا سُلّمتْ إليه طرابُلُس جعل ولده الأكبر فيها نائباً عنه.

وأمّا صلاح الدّين فإنّه عاد إلى حلب ثالث شعبان، فدخلها وسار منها إلى دمشق، وفرّق العساكر الشرقيّة، كعماد الدّين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور، وعسكر الموصل، وغيرها، ثمّ رحل من حلب إلى دمشق، وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز، فزاره، وزار الشيخ الصالح أبا زكرياء المغربيّ، وكان مقيماً هناك، وكان من عباد الله الصالحين، وله كرامات ظاهرة.

وكان مع صلاح الدّين الأمير عزّ الدّين أبو الفليتة قاسم بن المهنّا العلويّ الحسينيّ، وهو أمير مدينة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، كان قد حضر عنده، وشهد

---

(١) أنظر عن (فتح بغراس) في: النوادر السلطانية ٩٣، ٩٤، والفتح القسّي ٢٥٧ ـ ٢٥٩، وزبدة الحلب ٣/١٠٦، ومفرّج الكروب ٢/٢٦٨، ٢٦٩، والمغرب في حُلي المغرب ١٥٨، ونهاية الأرب ٢٨/٤٠٩، ٤١٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/٧٥، ودول الإسلام ٢/٩٦، وتاريخ الإسلام (٥٨٤هـ.) ص ٣٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/٩٩، والإعلام والتبيين ٣٩، والبداية والنهاية ٢/٢٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/٣١٥، وتاريخ ابن سباط ١/١٨٧.

(٢) هو بوهموند الرابع.

(٣) هو ريموند الثالث.

معه مشاهده وفتوحه، وكان صلاح الدّين قد تبارك برؤيته، وتيمّن بصُحبته، وكان يُكرمه كثيراً، وينبسط معه، ويرجع إلى قوله في أعماله كلّها، ودخل دمشق أوّل شهر رمضان، فأُشير عليه بتفريق العساكر، فقال: إنّ العمر قصير والأجل غير مأمون؛ وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون: كوكب، وصفد، والكَرَك، وغيرها، ولا[1] بدّ من الفراغ منها، فإنّها في وسط بلاد الإسلام، ولا يؤمن شرّ أهلها، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد، والله أعلم[2].

ذكر فتح الكَرَك وما يجاوره

كان صلاح الدّين قد جعل على الكَرَك عسكراً يحصره، فلازموا الحصار هذه المدّة الطويلة، حتّى فنيتْ أزواد الفرنج وذخائرهم، وأكلوا دوابّهم، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجالٌ، فراسلوا الملك العادل، أخا صلاح الدّين، وكان جعله صلاح الدّين على قلعة الكَرَك[3] في جمع من العسكر يحصرها، ويكون مُطّلعاً على هذه الناحية من البلاد لمّا أبعد هو إلى درب ساك، وبَغْراس، فوصلته رسل الفرنج من الكَرَك يبذلون تسليم القلعة إليه، ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى مقدّم العسكر الذي يحصرها في المعنى، فتسلّم القلعة منها وأمّنهم.

وتسلّم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشَّوبَك، وهُرْمُز، والوُعَيْرَة، والسّلع، وفرّغ القلب من تلك الناحية، وألقى الإسلام هناك جِرانه، وأمِنت قلوب مَن في ذلك السّقع من البلاد، كالقدس وغيره، فإنّهم كانوا ممّن بتلك الحصون وجِلين، ومن شرّهم مشفقين.

ذكر فتح قلعة صَفَد

لمّا وصل صلاح الدّين إلى دمشق، وأشير عليه بتفريق العساكر، وقال: لا بدّ

---

(١) في (أ): «والكرك وتبنين ولا».

(٢) أنظر خبر المهادنة في: النوادر السلطانية ٩٤، والفتح القسّي ٢٦٠، ٢٦١، وتاريخ الزمان ٢١٤، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٢، والمغرب ١٥٨، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤١٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٥، والدر المطلوب ٩٥، ومسالك الأبصار ١٦/ ق ٢/ ورقة ٣٨٦، وتاريخ الإسلام (٥٨٤هـ.) ص ٣٢، ودول الإسلام ٢/ ٩٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣١٦، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٠٠، ومشارع الأشواق ٢/ ٩٣٨، وشفاء القلوب ١٥٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٨٧، ١٨٨، وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري (تأليفنا) ج ١/ ٥٣٩، ٥٤٠.

(٣) في (أ): «قلعة تبنين»، والمثبت من (ب).

من الفراغ من صفد وكوكب وغيرهما، أقام بدمشق إلى منتصف رمضان، وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقاتلها، ونصب عليها المجانيق، وأدام الرمي إليها ليلاً ونهاراً بالحجارة والسهام.

وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى في المدّة التي كانوا فيها محاصَرين، فإنّ عسكر صلاح الدّين كان يحاصرهم، كما ذكرناه، فلمّا رأى أهله جدّ صلاح الدّين في قتالهم، خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم، وكانت قليلة، ويأخذهم عَنوة ويهلكهم، أو أنّهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأمّنهم وتسلّمها منهم، فخرجوا عنها وساروا إلى مدينة صور، وكفى الله المؤمنين شرّهم، فإنّهم كانوا وسط البلادِ الإسلامية[1].

ذكر فتح كوكَب

لمّا كان صلاح الدّين يحاصر صفد، اجتمع من بصور من الفرنج، وقالوا: إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب، ولو أنّها معلّقة بالكوكب، وحينئذٍ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد؛ فاتّفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرّاً من رجالٍ وسلاح وغير ذلك، فأخرجوا مائتيّ رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم، فساروا الليل مُستَخْفين، وأقاموا النهار مُكمِنين.

فاتّفق من قدر الله تعالى أنّ رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيّداً، فلقي رجلاً من تلك النجدة، فاستغربه بتلك الأرض، فضربه ليُعلمه بحاله، وما الذي أقدمه إلى هناك، فأقرّ بالحال، ودلّه على أصحابه، فعاد الجنديّ المسلم إلى قايماز النَّجْميّ، وهو مقدّم ذلك العسكر، فأعلمه الخبر، والفرنجيّ معه، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج، فكبسهم، فأخذهم،

---

(١) أنظر عن (فتح صفد) في: الفتح القسّي ٢٧٠ ـ ٢٧٥، والنوادر السلطانية ٩٦، وزبدة الحلب ١٠٨/٣، ومفرّج الكروب ٢٣٢/٢، وتاريخ الزمان ٢١٤، والمختصر في أخبار البشر ٧٥/٣، ٧٦، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤١١، والمغرب في حُلي المغرب ١٥٨، والدر المطلوب ٩٥، ودول الإسلام ٩٦/٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٣، وتاريخ ابن الوردي ١٠٠/٢، والبداية والنهاية ٣٣٠/١٢، وتاريخ ابن خلدون ٣١٦/٥، والسلوك ج ١، ق ١٠١/١، وشفاء القلوب ١٥٨، وتاريخ ابن سباط ١٨٩/١.

وتتبّعهم في الشّعاب والكهوف، فلم يُفلت منهم أحدٌ، فكان معهم مقدّمان من فرسان الإسبتار، فحُملا[1] إلى صلاح الدّين وهو على صفد، فأحضرهما ليقتلهما. وكانت عادته قتل الدّاويّة والإسبتاريّة لشدّة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم، فلمّا أمر بقتلهما قال له أحدهما: ما أظنّ ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح. وكان، رحمه الله، كثير العفو، يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه، فيعفو ويصفح، فلمّا سمع كلامهما لم يقتلهما، وأمر بهما فسُجنا.

ولمّا فتح صفد سار عنها إلى كوكب ونازلها وحصرها، وأرسل إلى مَن بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلّموا، ويتهدّدهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا، فلم يسمعوا قوله، وأصرّوا على الامتناع، فجدّ في قتالهم، ونصب عليهم المجانيق، وتابع رمي الأحجار إليهم، وزحف مرّة بعد مرّة، وكانت الأمطار كثيرة، لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً، فلم يتمكّن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه، وطال مُقامهم عليها.

وفي آخر الأمر زحفوا إليها دفعات متناوبة في يومٍ واحد، ووصلوا إلى باشورة القلعة، ومعهم النقّابون والرُّماة يحمونهم بالنُّشّاب عن قوس اليد والجروخ، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور، فنقبوا الباشورة فسقطت، وتقدّموا إلى السور الأعلى، فلمّا رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم، وطلبوا الأمان فأمّنهم، وتسلّم الحصن منهم منتصف ذي القعدة، وسيّرهم إلى صور، فوصلوا إليها.

واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كلّ صنديد، فاشتدّت شوكتهم، وحميت جمرتهم، وتابعوا الرسل إلى مَن بالأندلس وصقلّية وغيرهما من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون، والأمداد كلّ قليل تأتيهم، وكان ذلك كلّه بتفريط صلاح الدّين في إطلاق كلّ من حصره، حتّى عضّ بَنَانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك.

واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حدّ أيْلَة إلى أقصى أعمال بيروت، لا يفصل بينه غير مدينة صور، وجميع أعمال أنطاكية، سوى القُصير.

ولمّا ملك صلاح الدّين صفد سار إلى البيت المقدّس، فعيّد فيه عيد الأضحى، ثمّ سار منه إلى عكّا، فأقام بها حتّى انسلخت السنة[2].

---

(١) في الأوربية: «فحملوا».

(٢) أنظر عن (فتح كوكب) في: الفتح القسّي ٢٧٠ ـ ٢٧٥، والنوادر السلطانية ٩٦، ومفرّج الكروب =

ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة، عدّتهم اثنا عشر رجلاً، ليلاً، ونادوا بشعار العلويّين: يالَ عليّ، يالَ عليّ. وسلكوا الدّروب ينادون، ظنّاً منهم أنّ رعيّة البلد يُلَبّون دعوتهم، ويخرجون معهم، فيُعيدون الدّولة العلويّة، ويُخرجون بعض مَن بالقصر محبوساً منهم، ويملكون البلد، فلم يلتفت أحد منهم إليهم، ولا أعارهم سمعه.

فلمّا رأوا ذلك تفرّقوا خائفين، فأُخذوا، وكُتب بذلك إلى صلاح الدّين، فأهمّه أمرهم وأزعجه، فدخل عليه القاضي الفاضل، فأخبره الخبر، فقال القاضي الفاضل: ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتَمّ، حيث علمتَ من بواطن رعيّتك المحبّة لك والنُّصْح، وترك المَيل إلى عدوّك، ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيّتك، وخسرت الأموال الجليلة عليهم، لكان قليلاً: فسُرّيَ عنه.

وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدّين، وأكبر من بها، وستأتي مناقبه عند وفاته، ما تراه[1].

ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طُغرُل

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله عسكراً كثيراً، وجعل المقدّم عليهم وزيرَه جلال الدّين عُبيد الله بن يونُس، وسيّرهم إلى مساعدة قزل، ليكفّ السلطان طُغْرل عن البلاد، فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان، فلم يصل قزل إليهم، وأقبل طُغرُل إليهم في عساكره، فالتقوا ثامن ربيع الأوّل بداي مرج عند همذان، واقتتلوا، فلم يثبت عسكر بغداد، بل انهزموا وتفرّقوا، وثبت الوزير قائماً، ومعهُ مصحَف وسيف، فأتاه من عسكر طُغرُل مَن أسره، وأخذ ما معه من خزانة وسلاح ودوابّ وغير ذلك، وعاد العسكر إلى بغداد متفرّقين.

= ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٦، وتاريخ الزمان ٢١٤، والمغرب في حُلي المغرب ١٥٩، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤١١، ٤١٢، وزبدة الحلب ٣/ ١٠٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٥، ٧٦، والدر المطلوب ٩٥، ودول الإسلام ٢/ ٩٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٤، والإعلام والتبيين ٣٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٠، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣١٦، ٣١٧، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٠١، وشفاء القلوب ١٥٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٨٩.

(١) مفرّج الكروب ٢/ ٢٧٦، نهاية الأرب ٢٨/ ٤١٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٩.

وكنتُ حينئذٍ بالشام في عسكر صلاح الدّين يريد الغَزَاة، فأتاه الخبر مع النّجابين بمسير العسكر البغداديّ، فقال: كأنّكم وقد وصل الخبر بانهزامهم. فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لا شكّ أنّ أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير، وأطوع في العسكر منه، ومع هذا، فما أُرسل أحداً منهم في سريّة للحرب إلاّ وأخاف عليه؛ وهذا الوزير غير[1] عارف بالحرب، وقريبُ العهد بالولاية، ولا يراه الأمراء أهلاً أن يُطاع، وفي مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه، ومَن معه يطيعه. وكان الأمر كذلك، ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنتُ أخبرتُكم بكذا وكذا، وقد وصل الخبر بذلك.

ولمّا[2] عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء، وهو أحمد بن الواثق بالله:

أُتركونا من جائحاتِ الجَريمهْ	طلعةً طلعةً تكونُ وَخيمَهْ
بركاتُ الوزيرِ قد شَمَلتْنا	فلهذَا أُمُورنا مُستقيمَهْ
خرَجتْ جُندنا تُريدُ خُراسا	نَ جميعاً بأُبّهاتٍ عَظيمَهْ
بخُيولٍ وعدّةٍ وعَديدٍ	وسيوفٍ مُجرّباتٍ قديمَهْ
ووزيرٍ وطاقٍ طُنْبٍ ونَفْشٍ	وخيولٍ مُعَدّةٍ للهَزِيمَهْ
هُمْ رَأوا غرّةَ العَدوّ وقد أقـ	ـبَلَ ولّوا وانحلّ عقدُ العَزِيمَهْ
وأتونا ولا بخُفّيْ حُنينٍ	بوجوهٍ سودٍ قِباحٍ دَميمَهْ
لو رأى صاحِبُ الزمانِ ولو عا	يَنَ أفعالَهم وقُبحَ الجَريمَهْ
قابلَ الكلّ بالنكالِ وناهيـ	ـك بِها سُبّةً عليهم مُقيمَهْ

كان ينبغي أن تتقدّم هذه الحادثة، وإنّما أخّرتُها لتتبع الحوادث المتقدّمة بعضها بعضاً، لتعلّق كلّ واحدة منها بالأخرى[3].

---

(١) في الأوربية: «فغير».

(٢) من (أ).

(٣) راحة الصدور للراوندي ٤٨١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٤هـ.) ص ٣٧، وانظر: آثار الأُوَل في ترتيب الدول للعباسي، ص ١٠٤، ونهاية الأرب ٢٣/ ٣١٠، ٣١١ و٢٧/ ٦١، ٦٢.

ذكر عدّة حوادث

[الوَفَيَات]

في هذه السنة تُوفّي شيخنا أبو محمّد عبد الله بن عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن سُوَيدة التكريتيّ، كان عالماً بالحديث، وله تصانيف حسنة.

وفيها تُوفّيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان زوجة الخليفة، وكانت قبله زوجة نور الدّين محمّد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن، فلما تُوفّي عنها تزوّجها الخليفة، ووجد الخليفة عليها وجداً عظيماً ظهر للناس كلّهم، وبنى على قبرها تُربةً بالجانب الغربيّ، وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة.

وفيها تُوفّي علاء الدّين تنامش وحُمل تابوته إلى مشهد الحسين، عليه السّلام.

وفيها تُوفّي خالص خادم الخليفة، وكان أكبر أمير ببغداد.

ومات أبو الفَرَج بن النَّقُور العدل ببغداد، وسمع الحديث الكثير، وهو من بيت الحديث، رحمه الله.

٥٨٥

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ذكر فتح شَقِيف أرنُون

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، سار صلاح الدّين إلى شَقِيف أرنُون[١]، وهو من أمنع الحصون، ليحصره، فنزل بمَرج عُيونٍ، فنزل صاحب الشقيف، وهو أرناط[٢] صاحب صيدا، وكان أرناط هذا من أعظم الناس دهاء ومكراً، فدخل إليه واجتمع به، وأظهر له الطاعة والمودّة، وقال له: أنا محبٌّ لك، ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس[٣] ما بيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذىً، فإنّهم عنده، فأشتهي أن تمهلني حتّى أتوصّل في تخليصهم[٤] من عنده، وحينئذٍ أحضر أنا وهم عندك، ونسلّم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا من إقطاع؛ فظنّ صلاح الدّين صِدْقَه، فأجابه إلى ما سأل، فاستقرّ الأمر بينهما أن يسلّم الشقيف في جُمادى الآخرة.

وأقام صلاح الدّين بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلقٌ مفكّر، لقرب انقضاء مدّة الهدنة بينه وبين البيمُند، صاحب أنطاكية، فأمر تقيّ الدّين ابن أخيه أن يسير في مَن معه من عساكره، ومَن يأتي من بلاد المشرق، ويكون مقابل أنطاكية لئلاّ يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة.

وكان أيضاً منزعج الخاطر، كثير الهمّ، لِما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور،

---

(١) في طبعة المنيرية ١٩٩/٩ «أرنوم» بالميم، وكذا في نهاية الأرب ٤١٣/٢٨، والمثبت هو الصحيح قلعة حصينة بين بانياس والساحل. (معجم البلدان)، وهي حالياً في جنوب لبنان.

(٢) هو رينالد، ويُعرف بريجنالد.

(٣) في (أ) زيادة: «بصور».

(٤) في (أ): «خلاصهم».

وما يتّصل بهم من الأمداد في البحر، وأنّ ملك الفرنج الذي كان قد أسره صلاح الدّين وأطلقه، بعد فتح القدس، قد اصطلح هو والمركيس، بعد اختلافٍ كان بينهما، وأنّهم قدْ اجتمعوا في خلق لا يُحصون، فإنّهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها؛ فكان هذا وأشباهه ممّا يزعجه، ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتّقدّم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه، إلاّ أنّه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف.

وكان أرناط، في مدّة الهدنة، يشتري الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك ممّا يُحصّن به شقيفه، وكان صلاح الدّين يُحسن الظنّ، وإذا قيل له عنه ممّا هو فيه من المكر، وإنّ قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور، وحينئذٍ يبدي فضيحته، ويظهر مخالفته، لا يقبل فيه، فلمّا قارب انقضاء الهدنة تقدّم صلاح الدّين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنون وأحضر عنده أرناط وقد بقي من الأجل ثلاثة أيّام، فقال له في معنى تسليم الشقيف، فاعتذر بأولاده وأهله، وأنّ المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه وطلب التأخير مدّة أخرى، فحينئذٍ علم السلطان مكره وخداعه، فأخذه وحبسه، وأمره بتسليم الشقيف، فطلب قِسّيساً، ذكره، ليحمله رسالة إلى مَن بالشقيف ليسلّموه، فأحضروه عنده، فسارّه بما لم يعلموا، فمضى ذلك القِسّيس إلى الشقيف، فأظهر أهله العصيان، فسيّر صلاح الدّين أرناط إلى دمشق وسجنه، وتقدّم إلى الشقيف فحصره وضيّق عليه، وجعل عليه مَن يحفظه ويمنع عنه الذّخيرة والرجال[1].

ذكر وقعة اليَزَك مع الفرنج

لمّا كان صلاح الدّين بمرجِ عيونٍ، وعلى الشَّقيف، جاءته كُتب من أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً في مقابل الفرنج على صور، يخبرونه فيها أنّ الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور، وعزموا على حصار صيدا، فسار صلاح الدّين جريدةً

---

(١) أنظر عن (حصن الشقيف) في: الفتح القسّي ٢٨٥ ـ ٢٩٢، والنوادر السلطانية ٩٧ ـ ١٠٣، ومفرّج الكروب ٢/ ٢٨٢ ـ ٢٩٠، وزبدة الحلب ٣/١٠٨ ـ ١١٠، وتاريخ الزمان ٢١٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/٧٦، ونهاية الأرب ٢٨/٤١٣، ٤١٤، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤١، ٤٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/٣١٧، والسلوك ج ١، ق ١/١٠٢، وشفاء القلوب ١٥٩، ١٦٠، وتاريخ ابن سباط ١/١٩٠، ١٩١.

في شجعان أصحابه، سوى مَن جعله على الشقيف، فوصل إليهم وقد فات الأمر.

وذلك أنّ الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لمقصدهم، فلقِيَهم اليَزَك على مضيقٍ هناك، وقاتلوهم ومنعوهم، وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة منهم سبعة رجال من فرسانهم المشهورين وجرحوا جماعة، وقُتل من المسلمين أيضاً جماعة منهم مملوك لصلاح الدّين كان من أشجع الناس، فحمل وحده على صفّ الفرنج، فاختلط بهم، وضربهم بسيفه يميناً وشمالاً، فتكاثروا عليه فقتلوه، رحمه الله؛ ثمّ إنّ الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيْدا فعادوا إلى مكانهم.

ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوّعة

لمّا وصل صلاح الدّين إلى اليَزَك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة، ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم، ويأخذ بثأر مَن قتلوه من المسلمين. فركب في بعض الأيّام في عدّة يسيرة على أن ينظر إلى مخيّم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده، وظنّ مَن هناك من غُزَاة العجم والعرب المتطوّعة أنّه على قصد المصافّ والحرب، فساروا مُجِدّين وأوغلوا في أرض العدوّ مبعدين، وفارقوا الحزم، وخلّفوا السلطان وراء ظهورهم، وقاربوا الفرنج، فأرسل صلاح الدّين عدّة من الأمراء يردّونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم يسمعوا ولم يقبلوا.

وكان الفرنج قد اعتقدوا أنّ وراءهم كميناً، فلم يقدموا عليهم، فأرسلوا مَن ينظر حقيقة الأمر، فأتاهم الخبر أنّهم منقطعون عن المسلمين، وليس وراءهم ما يُخاف، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن أناموهم، وقُتل معهم جماعة من المعروفين، وشقّ على صلاح الدّين والمسلمين ما جرى عليهم، وكان ذلك بتفريطهم في حقّ أنفسهم، رحمهم الله ورضي عنهم.

وكانت هذه الوقعة تاسع جُمادى الأولى، فلمّا رأى صلاح الدّين ذلك انحدر من الجبل إليهم في عسكره، فحملوا على الفرنج فألقوهم إلى الجسر وقد أخذوا طريقهم، فألقوا أنفسهم في الماء، فغرق منهم نحو مائة[1] دارع سوى مَن قُتل، وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم، فتسامع الناس، فقصدوه من كلّ ناحية واجتمع معه خلق

---

(١) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤٢ «فغرق مائتا نفس».

كثير، فلمّا رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور، فلمّا عادوا إليها سار صلاح الدّين إلى تِبنين، ثمّ إلى عكّا ينظر حالها، ثمّ عاد إلى العسكر والمخيّم[1].

ذكر وقعة ثالثة

لمّا عاد صلاح الدّين إلى العسكر أتاه الخبر أنّ الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش، متبدّدين، فكتب إلى مَن بعكّا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جُمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين، ورتّب كُمناء في موضع من تلك الأودية والشِعاب، واختار جماعة من شجعان عسكره، وأمرهم بالتعرّض للفرنج، وأمرهم أنّهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال، ثمّ تطاردوا لهم، وأروهم العجزَ عن مقاتلتهم، فإذا تبِعهم الفرنج استجرّوهم إلى أن يجوزوا موضع الكمين، ثمّ يعطفوا عليهم، ويخرج الكمين من خلفهم؛ فخرجوا على هذه العزيمة.

فلمّا تراءى الجَمْعان، والتقت الفئتان واقتتلوا، أنِف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة، وثبتوا، فقاتلوهم، وصبر بعضهم لبعض، واشتدّ القتال وعظُم الأمر، ودامت الحرب، وطال على الكُمناء الانتظار، فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكامنهم نحوهم مسرعين، وإليهم قاصدين، فأتوهم وهم في شدّة الحرب، فازداد الأمر شدّة على شدّة، وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة وطيّ، وكانوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم، فسلكوا الوادي ظنّاً منهم أنّه يخرج بهم إلى أصحابهم، وتبِعهم بعض مماليك صلاح الدّين، فلمّا رآهم الفرنج بالوادي علموا أنّهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم.

وأمّا المملوك فإنّه نزل عن فرسه، وجلس على صخرة، وأخذ قوسه بيده، وحمى نفسه، وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحاتٍ كثيرة، فسقط فأتوه وهو بآخر رمق، فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميّتاً؛ ثمّ إنّ المسلمين جاؤوا من الغد إلى موضعهم، فرأوا[2] القتلى، ورأوا المملوك حيّاً، فحملوه في كساء، وهو يكاد لا يُعرف من [كثرة] الجراحات، فأيسوا من حياته، فأعرضوا [عنه وعرضوا] عليه الشهادة، وبشّروه بالشهادة، فتركوه، ثمّ عادوا إليه، فرأوه وقد قويت نفسه، فأقلبوا عليه بمشروب، فعوفي، ثمّ كان بعد ذلك لا يحضر

---

(١) أنظر المصادر السابقة.

(٢) في (أ): «فواروا».

مشهداً إلاّ كان له فيه الأثر العظيم.

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصرتها

لمّا كثُر جَمْع الفرنج بصور على ما ذكرناه من أنّ صلاح الدّين كان كلّما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان، وسيّرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم. فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يُعدّ ولا يُحصى، ومن الأموال ما لا يفنى على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة، ثمّ إنّ الرهبان والقسوس وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدّس من أيديهم، وأخذهم البطْرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً[1]، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس، وصوّروا المسيح، عليه السّلام، وجعلوه مع صورة عربيّ يضربه، وقد جعلوا الدّماء على صورة المسيح، عليه السّلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمّد نبيّ المسلمين وقد جرحه وقتله.

فعظُم ذلك على الفرنج، فحشروا وحشدوا حتّى النساء، فإنّهم كان معهم على عكّا عدّة من النساء يبارزن[2] الأقران، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، ومن لم يستطع الخروج استأجر مَن يخرج عوضه، أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرّق إليه الإحصاء.

ولقد حدّثني بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد، وهو من أجناد أصحابه الذين سلّموه إلى الفرنج قديماً، وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه [من] موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الإسلام، والقتال معهم، والسعي معهم، وكان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة، إن شاء الله تعالى.

قال لي هذا الرجل إنّه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحريّة التي للفرنج والروم في أربع شوانٍ، يستنجدون؛ قال: فانتهى به التّطواف إلى رومية الكبرى، فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نُقُرَة[3].

وحدّثني بعض الأسرى منهم أنّه له والدة ليس لها ولد سواه، ولا يملكون من

---

(١) في (أ): «جميعها».

(٢) في الأوربية: «يبارزون».

(٣) النُقْرة: بضم النون، النقود.

الدّنيا غير بيت باعته وجَهّزته بثمنه، وسيّرته لاستنقاذ بيت واحد فأخذ أسيراً.

وكان عند الفرنج من الباعث الدينيّ والنفسانيّ ما هذا حدّه، فخرجوا على الصعب والذّلُول، برّاً وبحراً، من كلّ فجّ عميق، ولولا [أن] الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لمّا خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، وإلاّ كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين.

فهذا كان سبب خروجهم، فلمّا اجتمعوا بصور تموّج بعضهم في بعض، ومعهم الأموال العظيمة، والبحر يمّدهم بالأقوات والذّخائر، والعُدد والرجال، من بلادهم، فضاقت عليهم صور، باطنها وظاهرها، فأرادوا قصد صيْدا، وكان ما ذكرناه، فعادوا واتّفقوا على قصد عكّا ومحاصرتها ومصابرتها، فساروا إليها بفارسهم وراجلهم، وقضّهم وقضيضهم، ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر، والضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر، فيها سلاحهم وذخائرهم، ولتكون عدّة لهم، إن جاءهم ما لا قِبَل لهم به ركبوا فيها وعادوا؛ وكان رحيلهم ثامن رجب، ونزولهم على عكّا في منتصفه، ولمّا كانوا سائرين كان يَزَك المسلمين يتخطّفونهم، ويأخذون المنفرد منهم.

ولمّا رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدّين برحيلهم، فسار حتّى قارَبَهم، ثمّ جمع أمراءه واستشارهم: هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون، أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟ فقالوا: لا حاجة بنا إلى احتمال المشقّة في مسايرتهم، فإنّ الطريق وعر وضيّق، ولا يتهيّأ لنا ما نريده منهم، والرأي أنّنا نسير في الطريق المَهيْع، ونجتمع عليهم عند عكّا، فنفرّقهم ونمزّقهم.

فعلم ميلهم إلى الراحة المعجّلة، فوافقهم، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال: إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهيّأ لنا إزعاجهم، ولا نَيل الغرض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكّا؛ فخالفوه، فتبِعهم، وساروا على طريق كفر كَنّا، فسبقهم الفرنج، وكان صلاح الدّين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم، ويناوشونهم القتال، ويتخطّفونهم، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قِلّتهم، فلو أنّ العساكر اتّبعت رأي صلاح الدّين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكّا، لكان بلغ غرضه وصدّهم عنها، ولكن إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابَه.

ولمّا وصل صلاح الدّين إلى عكّا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى

البحر، من الجانب الآخر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فنزل صلاح الدّين عليهم، وضرب خيمته على تلّ كَيسان، وامتدّت ميمنته إلى تلّ العياضيّة[1] وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأثقال بصفّوريّة، وسيّر الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر، فأتاه عسكر الموصل، وديار بكر، وسِنجار وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه تقيّ الدّين ابن أخيه، وأتاه مظفّر الدّين بن زين الدّين، وهو صاحب حرّان والرُّها.

وكانت الأمداد تأتي المسلمين في البرّ وتأتي الفرنج في البحر، وكان بين الفريقَيْن مدّة مُقامهم على عكّا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة، منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك، وأنا أذكر الأيّام الكبار لئلاّ يطول ذلك، ولأنّ ما عداها كان قتالاً يسيراً من بعضهم مع بعض، فلا حاجة إلى ذكره.

ولمّا نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم، ولا إلى عكّا، حتّى انسلخ رجب، ثمّ قاتلهم مستهلّ شعبان، فلم ينل منهم ما يريد، وبات الناس على تعبئة. فلمّا كان الغد باكرهم القتال بحدّه وحديده، واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بُكرة إلى الظهر، وصبر الفريقان صبراً حار له مَن رآه.

فلمّا كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدّين حملة مُنكَرة من الميمنة على مَن يليه منهم، فأزاحهم عن مواقفهم يركب بعضهم بعضاً لا يلوي أخٌ على أخ، والتجأوا إلى مَن يليهم من أصحابهم، واجتمعوا بهم واحتموا بهم، وأخلوا نصف البلد، وملك تقي الدّين مكانهم، والتصق بالبلد، وصار ما أخلوه بيده، ودخل المسلمون البلد، وخرجوا منه، واتّصلت الطرق، وزال الحصر عمّن فيه، وأدخل صلاح الدّين إليه مَن أراد من الرجال، وما أراد من الذّخائر والأموال والسلاح وغير ذلك، ولو أنّ المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا[2] ما أرادوه، فإنّ للصدمة الأولى روعة، لكنّهم لمّا نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة، وتركوا القتال وقالوا: نُباكرهم غداً، ونقطع دابرهم.

وكان في جملة مَن أدخله صلاح الدّين إلى عكّا من جملة الأمراء حسام الدّين أبو الهيجاء السمين، وهو من أكابر أمراء عسكره، وهو من الأكراد الحكميّة من بلد إربل، وقُتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة.

---

(١) في طبعة صادر ١٢/ ٣٤ «الغياظية»، والمثبت من (أ).

(٢) في الأوربية: «فبلغوا».

ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب

ثمّ إنّ المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم، واستنفاد وُسعهم في استئصالهم، فتقدّموا على تعبئتهم، فرأوا الفرنج حذِرين محتاطين، قد ندموا على ما فرّطوا فيه بالأمس، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم، وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فألحّ المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدّم الفرنج إليهم، ولا فارقوا مرابضهم؛ فلمّا رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم.

ثمّ إنّ جماعة من العرب بلغهم أنّ الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم، فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان، فلمّا خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب، فقتلوهم عن آخرهم، وغنموا ما كان معهم، وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدّين، فأحسن إليهم، وأعطاهم الخِلع.

ذكر الوقعة الكبرى على عكّا

لمّا كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان، كلّ يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه، والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه، ثمّ إنّ الفرنج اجتمعوا للمشورة، فقالوا: إنّ عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدّين هكذا، فكيف يكون إذا حضر[1]؟ والرأي أنّنا نلقى المسلمين غداً لعلّنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم.

وكان كثير من عسكر صلاح الدّين غائباً عنه، بعضها مقابل أنطاكية ليردّوا عادية بيمُنْد صاحبها عن أعمال حلب، وبعضها في حمص مقابل طرابلس لتحفظ ذلك الثغر أيضاً، وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد، وعسكر بمصر يكونُ بثغر دمياط والإسكندريّة وغيرهما؛ والذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم[2]، كما ذكرناه قبلُ، وكان هذا ممّا أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين.

وأصبح المسلمون على عادتهم، منهم مَن يتقدّم إلى القتال، ومنهم مَن هو في خيمته، ومنهم مَن قد توجّه في حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو

---

(١) في الأوربية: «حضرت».

(٢) البيكار: المسافة.

وأصحابه ودوابّه، إلى غير ذلك، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنّهم الجراد المنتشر، يدبّون على وجه الأرض، قد ملأوها طولاً وعرضاً، وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقيّ الدّين عمر ابن أخي صلاح الدّين، فلمّا رأى الفرنجَ نحوه قاصدين حذِر هو وأصحابه، فتقدّموا إليه، فلمّا قربوا منه تأخّر عنهم.

فلمّا رأى صلاح الدّين الحال، وهو في القلب، أمدّ تقيّ الدّين برجالٍ من عنده ليتقوّى بهم، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيّين في جناح القلب، فلمّا رأى الفرنج قلّة الرجال في القلب، وأنّ كثيراً منهم قد سار نحو الميمنة مدداً لهم، عطفوا على القلب، فحملوا حملة رجلٍ واحد، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين، وثبت بعضهم، فاستشهد جماعة منهم كالأمير مُجَلّى بن مَروان والظَّهِير أخي[1] الفقيه عيسى، وكان والي البيت المقدّس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدّين، وكالحاجب خليل الهَكّاريّ وغيرهم من الشجعان الصابرين في مواطن الحرب، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردّهم، فقصدوا التلّ الذي عليه خيمة صلاح الدّين، فقتلوا مَن مرّوا به، ونهبوا، وقتلوا عند خيمة صلاح الدّين جماعة، منهم شيخنا جمال الدّين أبو عليّ بن رَواحة الحمويّ، وهو من أهل العلم، وله شِعر حَسَن، وما ورث الشهادة من بعيد، فإنّ جدّه عبد الله بن رَوَاحة، صاحب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، قتله الروم يوم مؤتة، وهذا قتله الفرنج يوم عكّا، وقتلوا غيره، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التلّ، فوضعوا السيف فيمن لقوه، وكان من لُطف الله تعالى بالمسلمين أنّ الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدّين، ولو لقوها[2] لعلم الناس وصولهم إليها، وانهزام العساكر بين أيديهم، فكانوا انهزموا أجمعون[3].

ثمّ إنّ الفرنج نظروا وراءهم، فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم، فرجعوا خوفاً أن ينقطعوا عن أصحابهم، وكان سبب انقطاعهم أنّ الميمنة وقفت مقابلتهم، فاحتاج بعضهم [أن] يقف مقابلها، وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج، فاشتغل المدد بقتال مَن بها عن الاتّصال بأصحابهم، وعادوا إلى طرف خنادقهم، فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدّين، فصادفوهم وهم راجعون، فقاتلوهم، وثار بهم غلمان العسكر.

---

(١) في الأوربية: «أخو».

(٢) في الأوربية: «ألقوها».

(٣) في الأوربية: «أجمعين».

وكان صلاح الدّين لمّا انهزم القلب قد تبِعهم يناديهم، ويأمرهم بالكَرة، ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة، فأخذتهم سيوف الله من كلّ جانب، فلم يفلت منهم أحدٌ، بل قُتل أكثرهم، وأُخذ الباقون أسرى، وفي جملة من أُسر مقدّم الداويّة الذي كان قد أسره صلاح الدّين وأطلقه، فلمّا ظفر به الآن قتله.

وكان عدّة القتلى، سوى من كان إلى جانب البحر، نحو عشرة آلاف قتيل، فأمر بهم، فأُلقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه؛ وكان عامّة القتلى من فرسان الفرنج، فإنّ الرجّالة لم يلحقوهم، وكان في جملة الأسرى ثلاث نِسوة فرنجيات كنّ يقاتلن على الخيل، فلمّا أُسرن، وأُلقي عنهنّ السلاح عُرفن أنّهنّ نساء.

وأمّا المنهزمون من المسلمين، فمنهم من رجع من طبريّة، ومنهم مَن جاز الأردنّ وعاد، ومنهم مَن بلغ دمشق، ولولا أنّ العساكر تفرّقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج [من] الاستئصال، والإهلاك، مرادَهم، على أنّ الباقين بذلوا جُهدهم، وجدّوا في القتال وصمّموا على الدّخول مع الفرنج إلى معسكرهم لعلّهم يفزعون منهم[1]، فجاءهم الصريخ بأنّ رحالهم وأموالهم قد نُهبت، وكان سبب هذا النّهب أنّ الناس لمّا رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدّوابّ، فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه، فنهبوه وأتوا عليه، وكان في عزم صلاح الدّين أن يباكرهم القتال والزحف، فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، وهم يَسْعَون في جمْعها وتحصيلها، فأمر بالنّداء بإحضار ما أُخذ، فأُحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش، والعِيَب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك، فردّ الجميع على أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، فسكن روع الفرنج، وأصلحوا شأن الباقين منهم.

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكّنهم من حصر عكّا

لمّا قُتل من الفرنج ذلك العدد الكثير، جافت الأرض من نتن ريحهم، وفسد الهواء والجوّ، وحدث للأمزجة فساد، وانحرف مزاج صلاح الدّين، وحدث له قولَنْج مُبْرِح كان يعتاده، فحضر عنده الأمراء، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع، وترك مضايقة الفرنج، وحسّنوه له، وقالوا: قد ضيّقنا على الفرنج، ولو أرادوا

---

(١) قال العماد الكاتب في هذه الموقعة: العجب أن الذين ثبتوا نحو ألف ردّوا مائة ألف، وكان الواحد يقول: قتلت من الفرنج ثلاثين، قتلت أربعين.

الانفصال عن مكانهم لم يقدروا، والرأي أنّنا نبعُد عنهم بحيث يتمكّنون من الرحيل والعَود، فإنْ رحلوا، وهو ظاهر الأمر، فقد كُفينا شرّهم وكُفوا شرّنا، وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه، ثمّ إنّ مزاجك منحرف، والألم شديدٌ، ولو وقع إرجاف لهلك الناس، والرأي على كلّ تقديرٍ البُعْدُ عنهم.

ووافقهم الأطبّاء على ذلك، فأجابهم إليه إلى ما يريد الله يفعله ﴿وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ مِنْ وَالٍ﴾[١]، فرحلوا إلى الخَرّوبة[٢] رابع شهر رمضانَ وأمر مَن بعكّا من المسلمين بحفظها، وإغلاق أبوابها، والاحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله.

فلمّا رحل هو وعساكره[٣] أمِن الفرنج وانبسطوا في تلك الأرض، وعادوا فحصروا[٤] عكّا، وأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ومراكبهم أيضاً في البحر تحصرها، وشرعوا في حفر الخَندق[٥]، وعمل السور من التّراب الذي يخرجونه من الخندق، وجاؤوا بما لم يكن في الحساب؛ وكان اليَزَك كلّ يوم يوافقهم، وهم لا يقاتلون، ولا يتحرّكون، إنّما هم مهتمّون بعمل الخندق والسور عليهم ليتحصّنوا به من صلاح الدّين، إن عاد إلى قتالهم، فحينئذٍ ظهر رأي المشيرين بالرحيل.

وكان اليَزَك كلّ يوم يخبرون صلاح الدّين بما يصنع الفرنج، ويعظّمون الأمر عليه، وهو مشغول بالمرض، لا يقدر على النهوض للحرب، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليهم[٦] ليمنعهم من الخندق والسور، ويقاتلوهم، ويتخلّف هو عنهم، فقال: إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً، وربّما كان من الشرّ أضعاف ما نرجوه من الخير؛ فتأخّر الأمر إلى أن عوفي، فتمكّن الفرنج وعملوا ما أرادوا، وأحكموا أمورهم، وحصّنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل، وكان مَن بعكّا يخرجون إليهم كلّ يوم، ويقاتلونهم، وينالون منهم بظاهر البلد.

---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) الخَرُّوبة: حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكّا. (معجم البلدان ٢/ ٣٦٢).

(٣) في الأوربية: «وعساكر».

(٤) في الأوربية: «حصروا».

(٥) في الأوربية: «الخفدق».

(٦) في الأوربية: «إليها».

ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصريّ في البحر

في منتصف شوّال وصلت العساكر المصريّة، ومقدّمها الملك العادل سيف الدّين أبو بكر بن أيّوب، فلمّا وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه، واشتدّت ظهورهم، وأحضر معه من آلات الحصار، من الدُّرُق والطّارقيّات والنُّشّاب والأقواس، شيئاً كثيراً، ومعهم من الرجّالة الجمّ الغفير، وجمع صلاح الدّين من البلاد الشاميّة راجلاً كثيراً، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل.

ووصل بعده الأسطول المصريّ، ومقدّمه الأمير لؤلؤ، وكان شهماً، شجاعاً، مقداماً، خبيراً بالبحر والقتال فيه، ميمون النقيبة، فوصل بغتة، فوقع على بُطْسة كبيرة للفرنج، فغنمها، وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة، فأدخلها إلى عكّا، فسكنت نفوس مَن بها بوصول الأسطول وقوي جَنانهم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر، خُطب لوليّ العهد (أبي نصر)[1] محمّد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد، ونُثرت الدّنانير والدّراهم، وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة، ففُعل ذلك[2].

وفيها، في شوّال، ملك الخليفة تكريت، وسبب ذلك أنّ صاحبها، وهو الأمير عيسى، قتله إخوته، وملكوا القلعة بعده، فسيّر الخليفة إليهم عسكراً فحصروها وتسلّموها، ودخل أصحابه إلى بغداد فأُعطوا أقطاعاً[3].

وفيها، في صفر، فُتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربيّ من بغداد، وحضر الخلق العظيم، فكان يوماً مشهوداً.

[الوفيات]

وفي هذه السنة، في رمضان، مات شرف الدّين أبو سعد عبد الله بن محمّد بن هبة الله بن أبي عصرون[4]، الفقيه الشافعيّ بدمشق، وكان قاضيها، وأضرّ، ووليَ القضاء بعده ابنه، وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعيّة.

---

(١) من (أ)، وفي بعض النُسَخ: «أبي نصر لدين الله».
(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٢، نهاية الأرب ٢٣/ ٣١١.
(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤١، نهاية الأرب ٢٣/ ٣١١.
(٤) انظر عن (ابن ابي عصرون) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ٢١٧ ـ ٢٢٠ رقم ١٧٤.

وفيها، في ذي القعدة، تُوفّي الفقيه ضياء الدّين عيسى الهكّاريّ[1] بالخَرُّوبة مع صلاح الدّين، وهو من أعيان أمراء عسكره، ومن قدماء الأسديّة، وكان فقيهاً، جنديّاً، شجاعاً، كريماً، ذا عصبيّة ومروءة، وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرْزيّ، تفقّه عليه بجزيرة ابن عمر، ثمّ اتّصل بأسد الدِّين شِيركوه فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعاً، وتقدَّم عند صلاح الدّين تقدُّماً عظيماً.

وفيها، في صفر، تُوفّي شيخنا أبو العبّاس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان، المعروف بابن أفضل الزمان، بمكّة، وكان رحمه الله عالماً متبحّراً في علوم كثيرة، خلاف فقه مذهبه والأصولَيْن، والحساب والفرائض، والنجوم، والهيئة، والمنطق، وغير ذلك، وختم أعماله بالزُّهد، ولبس الخشن، وأقام بمكّة، حرسها الله تعالى، مجاوِراً، فتُوفّي بها، وكان من أحسن الناس صحبةً وخُلُقاً.

وفيها، في ذي القعدة، مات أبو طالب المبارك بن المبارك[2] الكرْخيّ مدرّس النظاميّة، وكان من أصحاب أبي الحسن بن الخَلّ، وكان صالحاً خيّراً له عند الخليفة والعامّة حُرمة عظيمة، وجاهٌ عريضٌ، وكان حسن الخطّ يُضرب به المثلُ.

---

(١) انظر عن (الهكّاريّ) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ رقم ١٨٤.
(٢) انظر عن (المبارك بن المبارك) في: تاريخ الإسلام ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ رقم ١٩٣.

٥٨٦

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر وقعة الفرنج واليَزَك وعود صلاح الدّين إلى منازلة الفرنج

قد ذكرنا رحيل صلاح الدّين عن عكّا إلى الخَرُّوبة لمرضه، فلمّا برأ أقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء؛ وفي مدّة مُقامه بالخَرُّوبة كان يَزَكُه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج.

فلمّا دخل صفر من سنة ستّ وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج أنّ صلاح الدّين قد سار للصيد، ورأى العسكر الذي في اليَزَك عندهم قليلاً، وأنّ الوحل الذي في مرج عكّا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن يُنجد اليَزَك، فاغتنموا ذلك، وخرجوا من خندقهم على اليَزَك وقت العصر، فقاتلهم المسلمون، وحموا أنفسهم بالنّشّاب، وأحجم الفرنج عنهم، حتّى فني نشّابهم، فحملوا عليهم حينئذٍ حملة رجلٍ واحد، فاشتدّ القتال، وعظُم الأمر، وعلم المسلمون أنّه لا يُنجيهم إلاّ الصبر وصدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتلٍ إلى أن جاء الليل، وقُتل من الفريقَيْن جماعة كثيرة، وعاد الفرنج إلى خندقهم.

ولمّا عاد صلاح الدّين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة، فندب الناس إلى نصر إخوانهم، فأتاه الخبر أنّ الفرنج عادوا إلى خندقهم، فأقام، ثمّ إنّه رأى الشتاء قد ذهب، وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها، فتقدّم من الخَرُّوبة نحو عكّا، فنزل بتلّ كَيسان، وقاتل الفرنجَ كلّ يوم ليشغلهم عن قتال مَن بعكّا من المسلمين، فكانوا يقاتلون الطائفتَيْن ولا يسأمون.

ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

كان الفرنج، في مدّة مُقامهم على عكّا، قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدّاً، طولُ كلّ برج منها في السماء ستّون ذراعاً، وعملوا كلّ برج منها خمس

طبقات، كلّ طبقة مملوءة من المقاتلة، وقد جمعوا[١] أخشابها من الجزائر، فإنّ مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلُح لها من الخشب إلاّ القليل النادر، وغشّوها بالجلود والخلّ والطّين والأدويَة التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها، وقدّموها نحو مدينة عكّا من ثلاث جهات، وزحفوا بها في العشرين من ربيع الأوّل، فأشرفت على السور، وقاتل مَن بها مَن عليه، فانكشفوا، وشرعوا في طمّ خندقها، فأشرف البلد أن يُملك عَنوةً وقهراً.

فأرسل أهله إلى صلاح الدّين إنساناً سبح في البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو وعساكره وتقدّموا إلى الفرنج وقاتلوهم[٢] من جميع جهاتهم قتالاً عظيماً دائماً يشغلهم عن مكاثرة البلد، فافترق الفرنج فرقتَيْن: فرقة تقاتل صلاح الدّين، وفرقة تقاتل أهل عكّا، إلاّ أنّ الأمر قد خفّ عمّن بالبلد، ودام القتال ثمانية أيّام متتابعة، آخرها الثامن والعشرون[٣] من الشهر، وسئم الفريقان القتال، وملّوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً، والمسلمون قد تيقّنوا استيلاء الفرنج على البلد، لِما رأوا من عجز مَن فيه عن دفع الأبراج، فإنّهم لم يتركوا حيلة إلاّ وعملوها، فلم يُفِد ذلك ولم يُغن عنهم شيئاً، وتابعوا رمي النفط الطيّار عليها، فلم يؤثّر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك، فأتاهم الله بنصرٍ من عنده وإذنٍ في إحراق الأبراج.

وكان سبب ذلك أنّ إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفّاطين، وتحصيل عقاقير تقوّي عمل النار، فكان مَن يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: هذه حالة لا أباشرها بنفسي إنّما أشتهي معرفتها، وكان بعكّا لأمرٍ يريده الله، فلمّا رأى الأبراج قد نُصبت على عكّا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوّية للنار، بحيث لا يمنعها شيء من الطّين والخلّ وغيرهما، فلمّا فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش، وهو مُتولّي الأمور بعكّا والحاكم فيها، وقال له: تأمر المنجنيقيّ أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرجٍ من هذه الأبراج ما أعطيه حتّى أحرقه.

وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومَن فيه ما يكاد يقتله، فازداد

---

(١) في الأوربية: «جمع».

(٢) في الأوربية: «وقاتلهم».

(٣) في الأوربية: «والعشرين».

غيظاً بقوله وحَرِد عليه، فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يُفلحوا؛ فقال له مَن حضر: لعلّ الله تعالى قد جعل الفَرَج على يد هذا، ولا يضرّنا أن نوافقه على قوله؛ فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقيّ بامتثال أمره، فرمى عدّة قدورٍ نفطاً وأدوية ليس فيها نار، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون، ويرقصون، ويلعبون على سطح البرج، حتّى إذا علم أنّ الذي ألقاه قد تمكّن من البرج، ألقى قِدراً مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج، وألقى قِدراً ثانية وثالثة، فاضطرمت النار في نواحي البرج، وأعجلت مَن في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص، فاحترق هو ومَن فيه، وكان فيه من الزَّرَديات والسلاح شيء كثير.

وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لا تعمل شيئاً يحملهم على الطمأنينة وترك السعي في الخلاص، حتّى عجّل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة، فلمّا احترق البرج الأوّل انتقل إلى الثاني، وقد هرب مَن فيه لخوفهم، فأحرقه، وكذلك الثالث، وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله، والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لأنّهم ليس فيهم أحد إلاّ وله في البلد إمّا نسيب وإمّا صديق.

وحُمل ذلك الرجل إلى صلاح الدّين فبذل له الأموال الجزيلة والإقطاع الكثير فلم يقبل منه الحبّة الفرد، وقال: إنّما عملته لله تعالى، ولا أريد الجزاء إلاّ منه.

وسُيِّرتِ الكُتب إلى البلاد بالبشائر، وأرسل يطلب العساكر الشرقيّة، فأوّل مَن أتاه عماد الدّين زنكي بن مودود بن زنكي، وهو صاحب سِنجار وديار الجزيرة، ثمّ أتاه علاء الدّين ولد عزّ الدّين مسعود بن مودود بن زنكي، سيّره أبوه مقدّماً على عسكره وهو صاحب الموصل، ثمّ وصل زين الدّين يوسف صاحب إربل؛ وكان كلّ منهم إذا وصل يتقدّم إلى الفرنج بعسكره، وينضمّ إليه غيرهم، ويقاتلونهم، ثمّ ينزلون.

ووصل الأسطول من مصر، فلمّا سمع الفرنج بقربه منهم جهّزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدّين في العساكر جميعها، وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكّن من دخول عكّا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الفريقَيْن برّاً وبحراً، وكان يوماً مشهوداً لم يؤرّخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً بما فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك، إلاّ أنّ القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلاميّ سالماً.

ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته

في هذه السنة خرج ملك الألمان[1] من بلاده، وهم نوع من الفرنج، من أكثرهم عدداً، وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعجه مُلك الإسلام البيت المقدّس، فجمع عساكره، وأزاح علّتهم، وسار عن بلاده وطريقه علي القسطنطينيّة، فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدّين يعرّفه الخبر ويَعِد أنّه لا يمكّنه من العبور في بلاده.

فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسطنطينيّة عجز ملكها[2] عن منعه من العبور لكثرة جموعه[3]، لكنّه منع عنهم الميرة، ولم يمكّن أحداً من رعيّته من حمل ما يريدونه إليهم، فضاقت بهم الأزواد والأقوات، وساروا حتّى عبروا خليج القسطنطينيّة، وصاروا على أرض بلاد الإسلام، وهي مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن سليمان بن قَتَلْمِش بن سَلجق. فلمّا وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأوج، فما زالوا يسايرونهم ويقتلون مَن انفرد ويسرقون ما قدروا عليه، وكان الزّمان شتاءً والبرد يكون في تلك البلاد شديداً، والثلج متراكماً، فأهلكهم البرد والجوع والترجمان فقلّ عددهم.

فلمّا قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قُطْب الدّين ملكشاه بن قلج أرسلان ليمنعهم، فلم يكن له بهم قوّة، فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجَر ولده المذكور عليه، وتفرّق أولاده في بلاده، وتغلّب كلّ واحد منهم على ناحية منها، فلمّا عاد عنهم قُطْب الدّين أسرعوا السير في أثره، فنازلوا قونية، وأرسلوا إلى قلج أرسلان هديّة وقالوا له: ما قصدُنا بلادك ولا أردناها، وإنّما قصدُنا البيت المقدّس؛ وطلبوا منه أن يأذن لرعيّته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره، فأذن في ذلك، فأتاهم ما يريدون، فشبعوا، وتزوّدوا، وساروا؛ ثمّ طلبوا من قُطب الدّين أن يأمر رعيّته بالكفّ عنهم، وأن يسلّم إليهم جماعة من أمرائه رهائن، وكان يخافهم، فسلّم إليهم نيّفاً وعشرين[4] أميراً كان يكرههم، فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم

---

(١) هو الإمبراطور «فردريك بربروسه».

(٢) في الأوربية: «ملكه».

(٣) قال ابن النحاس في (مشارع الأشواق ٢/٩٤١): «وكانوا مائتي ألفاً وستين ألفاً»، وهو ينقل عن ابن واصل في: مفرّج الكروب ٢/٣١٧.

(٤) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤٧ «خمسة وعشرين».

والتّعرّض إليهم، فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء وقيّدهم، فمنهم مَن هلك في أسره، ومنهم مَن فَدى نفسه.

وسار ملك الألمان حتّى أتى بلادَ الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون[1]، فأمدّهم بالأقوات والعلوفات، وحكّمهم في بلاده، وأظهر الطاعة لهم؛ ثمّ ساروا نحو أنطاكية، وكان في طريقهم نهرٌ، فنزلوا عنده، ودخل ملكهم إليه ليغتسل، فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شرّه.

وكان معه ولد له[2]، فصار ملكاً بعده، وسار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابه عليه، فأحبّ بعضهم العَود إلى بلاده، فتخلّف عنه، وبعضهم مال إلى تمليك أخٍ له، فعاد أيضاً، وسار فيمَن صحّت نيّته له، فعرضهم، وكانوا[3] نيّفاً وأربعين ألفاً، ووقع فيهم الوباء والموت، فوصلوا إلى أنطاكية وكأنّهم قد نُبشوا من القبور، فتبرّم بهم صاحبها، وحسّن لهم المسير إلى الفرنج الذين على عكّا، فساروا على جَبلة ولاذقيّة وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون، وخرج أهل حلب وغيرها إليهم، وأخذوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممّن أُخذ[4]، فبلغوا طرابُلُس، وأقاموا بها أيّاماً، فكثُر فيهم الموت، فلم يبقَ منهم إلاّ نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا، ولمّا وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحدٌ[5].

وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدّين بأخبارهم، ويعِده أنّه يمنعهم من العبور في بلاده، فلمّا عبروها وخلّفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأنّ أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرّقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وأمّا صلاح الدّين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان، فإنّه استشار أصحابه،

---

(١) في (أ): «اسطفان ليون الأمني».

(٢) هو «فردريك دوق سوبيا».

(٣) في الأوربية: «وكانت».

(٤) أنظر: الفتح القسّي ٣٩٣ و٣٩٦ و٤٢٤، وزبدة الحلب ٣/ ١١٥، ومرآة الزمان ج ٨، ق ١/ ٤٠٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٤١، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ١/ ٢٢٦، وتاريخ طرابلس (تأليفنا) ج ١/ ٥٤٠.

(٥) تاريخ الزمان لابن العبري ٢١٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤٩، مشارع الأشواق ٢/ ٩٤١، تاريخ طرابلس (تأليفنا) ج ١/ ٥٤١.

فأشار كثيرٌ منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتّصلوا بمن على عكّا، فقال: بل نقيم إلى أن يقربوا منّا، وحينئذٍ نفعل ذلك لئلاّ يستسلم مَن بعكّا من عساكرنا؛ لكنّه سيّر بعض مَن عنده من العساكر، منها عسكر حلب، وجبلة، ولاذقيّة، وشَيْزَر، وغير ذلك، إلى أعمال حلب ليكونوا في أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم، وكان حال المسلمين كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾[1] فكفى الله شرّهم وردّ كيدَهم في نحرهم.

ومن شدّة خوفهم أنّ بعض أُمراء صلاح الدّين كان له ببلد الموصل قرية، وكان أخي، رحمه الله، يتولاّها، فحصّل دخْلها من حنطة وشعير وتبن، فأرسل إليه في بيع الغلّة، فوصل كتابه يقول: «لا تَبع الحبّةَ الفَرْد، واستكثِرْ لنا من التّبْن؛ ثمّ بعد ذلك وصل كتابه يقول: تبيع الطعام فما بنا حاجة إليه؛ ثمّ إنّ ذلك الأمير قدِم الموصلَ، فسألناه عن المنع من بيع الغلّة، ثمّ الإذْن فيها بعد مدّة يسيرة، فقال: لمّا وصلتِ الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنّا أنّنا ليس لنا بالشام مُقام، فكتبتُ بالمنع من بيع الغَلّة لتكون ذخيرةً لنا إذا جئنا إليكمْ، فلمّا أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبتُ ببيعها والانتفاع بثمنها.

ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكّا

وفي هذه السنة، في العشرين من جُمادى الآخرة، خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم، وتقدّموا إلى المسلمين، وهم كثير لا يُحصَى عددهم، وقصدوا نحو عسكر مصر، ومقدّمهم الملك العادل أبو بكر بن أيّوب، وكان المصريّون قد ركبوا واصطفّوا للقاء الفرنج، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانحاز المصريّون عنهم، ودخل الفرنج خيامهم، ونهبوا أموالهم، فعطف المصريّون عليهم، فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها، وتوجّهت طائفة من المصريّين نحو خنادق الفرنج، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا، وكانوا متّصلين كالنمل، فلمّا انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم، وأخذتْهم السيوف من كلّ ناحية فلم ينج منهم إلاّ الشريد، وقُتل منهم مقتلة عظيمة، يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ١٠ ـ ١١.

وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر، وكان مقدّمهم علاء الدّين خُرّمشاه بن عزّ الدّين مسعود صاحب الموصل، فحملوا أيضاً على الفرنج، وبالغوا في قتالهم، ونالوا منهم نيلاً كثيراً، هذا جميعه، ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاصّ التي مع صلاح الدّين، ولا أحدٌ من الميسرة، وكان بها عماد الدّين زنكي، صاحب سنجار، وعسكر إربل وغيرهم.

ولمّا جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم، ولانتْ عريكتهم، وأشار المسلمون على صلاح الدّين بمباكرتهم القتال، ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع، فاتّفق أنّه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان، وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر، وما صار أمرهم إليه من القلّة والذلّة، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال مَن بإزائهم، وظنّوا أنّ الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهناً على وهْنهم وخوفاً على خوفهم؛ فلمّا كان بعد يومَيْن أتت الفرنج أمداد في البحر مع كَنْد كبير من الكنود البحريّة يقال له الكنْد هري[1] ابن أخي ملك إفرنسيس لأبيه، وابن أخي ملك انكلتار لأمّه[2]، ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء، فوصل إلى الفرنج، فجنّد الأجناد، وبذل الأموال فعادت نفوسهم فقويت واطمأنّت، وأخبرهم أنّ الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً، فتماسكوا وحفظوا مكانهم، ثمّ أظهروا أنّهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم، فانتقل صلاح الدّين من مكانه إلى الخَرُّوبة في السابع والعشرين من جُمادى الآخرة، ليتّسع المجال، وكانت المنزلة قد أنتنتْ بريح القتلى.

ثمّ إنّ الكند هري نصب منجنيقاً ودبّابات وعرّادات[3]، فخرج مَن بعكّا من المسلمين فأخذوها، وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج؛ ثمّ إنّ الكند هري بعد أخذ مجانيقه أراد أن ينصب منجنيقاً، فلم يتمكّن من ذلك لأنّ المسلمين بعكّا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها مَن يرمي من المنجنيق، فعمل تلاًّ من تراب بالبعد من البلد.

ثمّ إنّ الفرنج كانوا ينقلون التلّ إلى البلد بالتّدريج، ويستترون به، ويقرّبونه إلى البلد، فلمّا صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق، نصبوا وراءه منجنيقَيْن،

---

(١) وفي المصادر: «الكند هنري».

(٢) أنظر حوادث ٥٨٨هـ. من هذا الكتاب. وهو كونت شامبانيا. (تاريخ طرابلس ١/ ٥٤٢).

(٣) في الأوربية: «وغرادات».

وصار التلّ سترة لهما[١]، وكانت الميرة قد قلّت بعكّا، فأرسل صلاح الدّين إلى الإسكندريّة يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكّا، فتأخّر إنفاذها، فسيّر إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك، فسيّر بُطسة عظيمة مملوءة من كلّ ما يريدونه، وأمر مَن بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبّهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان، فلمّا وصلوا إلى عكّا لم يشكّ الفرنج أنّها لهم، فلم يتعرّضوا لها، فلمّا حاذت ميناء عكّا أدخلها مَن بها، ففرح بها المسلمون، وانتعشوا وقويت نفوسهم، وتبلّغوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندريّة.

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأُخذت بنواحي الإسكندريّة، وأُخذ مَن معها، ثمّ إنّ الفرنج وصلهم كتاب من بابا، وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره، وقوله عندهم كقول النبيّين لا يُخالَف، والمحروم عندهم من حرمه، والمقرّب من قرّبه، وهو صاحب رومية الكبرى، يأمرهم بملازمة ما هم بصدده، ويُعلمهم أنّه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم برّاً وبحراً، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوّةً وطمعاً.

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لمّا تتابعت الأمداد إلى الفرنج، وجنّد لهم الكند هري جمعاً كثيراً بالأموال التي وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين، فتركوا على عكّا مَن يحصرها ويقاتل أهلها، وخرجوا، حادي عشر شوّال، في عددٍ كالرمل كثرةً وكالنار جمرةً؛ فلمّا رأى صلاح الدّين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى قَيْمُون، وهو على ثلاثة فراسخ عن عكّا، وكان قد عاد إليه مَن فرّق من عساكره لمّا هلك ملك الألمان، ولقي الفرنج على تعبئةٍ حسنة.

وكان أولاده الأفضل عليّ والظاهر غازي والظافر [خضر] ممّا يلي القلب، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة، ومعه عساكر مصر ومَن انضمّ إليهم، وكان في الميسرة عماد الدّين، صاحب سنجار، وتقيّ الدّين، صاحب حماة، ومعزّ الدّين سنجرشاه، صاحب جزيرة ابن عمر، مع جماعة من أمرائه؛ واتّفق أنّ صلاح الدّين أخذه مَغَسٌ كان يعتاده، فنصب له خيمة صغيرة على تلّ مشرف على العسكر، ونزل

---

(١) في الأوربية: «لها».

فيها ينظر إليهم، فسار الفرنج، شرقيّ نهر هناك، حتّى وصلوا إلى رأس النهر، فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها، فارتاعوا لذلك، ولقيهم الجالشيّة، وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس، فلمّا رأوا ذلك تحوّلوا إلى غرب النهر، ولزمهم الجالشيّة يقاتلونهم، والفرنج قد تجمّعوا، ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض الجالشيّة أن تحمل الفرنج عليهم، فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال، فيكون الفصل، ويستريح الناس، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم، فلزموا مكانهم، وباتوا ليلتهم تلك.

فلمّا كان الغد عادوا نحو عكّا ليعتصموا بخندقهم، والجالشيّة في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام، وكلّما قُتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلاّ يعلم المسلمون ما أصابهم، فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدّين لكانت هي الفيصل، وإنّما للّه أمرٌ هو بالِغُه؛ فلمّا بلغ الفرنج خندقهم، ولم يكن لهم بعدها ظهور منه، عاد المسلمون إلى خيامهم، وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً.

وفي الثالث والعشرين من شوّال أيضاً كَمَنَ جماعة من المسلمين، وتعرّض للفرنج جماعة أخرى، فخرج إليهم أربع مائة فارس، فقاتلهم المسلمون شيئاً من قتال، وتطاردوا لهم، وتبِعهم الفرنج حتّى جازوا الكمين، فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد.

واشتدّ الغلاء على الفرنج، حتّى بلغت غِرارة[1] الحنطة أكثر من مائة دينار صوريّ، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أُسامة، مستحفظ بيروت، كان يحمل الطعام وغيره؛ ومنهم سيف الدّين عليُّ بن أحمد المعروف بالمشطوب، كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم؛ وكذلك من عسقلان وغيرها، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لهياج البحر.

ذكر تسيير البدل إلى عكّا والتفريط فيه حتّى أُخذتْ

لمّا هجم الشتاء، وعصفت الرياح، خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنّها لم تكن في الميناء، فسيّروها إلى بلادهم صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عكّا في

---

(١) في الأوربية: «الغرارة».

البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدّين يشكون الضجر والملل والسآمة، وكان بها الأمير حسام الدّين أبو الهيجاء السّمين مقدّماً على جُنْدها، فأمر صلاح الدّين بإقامة البَدَل وإنفاذه إليها، وإخراج مَن فيها، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك، فانتقل إلى جانب البحر، ونزل تحت جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني، وكلّما جاءه جماعة من العسكر سيّرهم إليها، وأخرج عوضهم، فدخل إليها عشرون أميراً، وكان بها ستّون أميراً، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا، وأهمل نُوّاب صلاح الدّين تجنيد الرجال وإنفاذهم.

وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جُنّدوا تعنّتوهم بأنواع شتّى، تارةً بإقامة معرفة، وتارةً بغير ذلك، فتفرّق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدّين ووثوقه بنوّابه، وإهمال النوّاب، فانحسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكّا وانقطع الطريق إلاّ من سابحٍ يأتي بكتاب.

وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكّا سيف الدّين عليّ بن أحمد المشطوب، وعزّ الدّين أرسل مقدّم الأسديّة بعد جاولي وابن جاولي، وغيرهم، وكان دخولهم عكّا أوّل سنة سبعٍ وثمانين [وخمسمائة][1]، وكان قد أشار جماعة على صلاح الدّين بأن يرسل إلى مَن بعكّا النفقات الواسعة والذّخائر والأقوات الكثيرة، ويأمرهم بالمُقام، فإنّهم قد جرّبوا وتدرَّبوا واطمأنّت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، وظنّ فيهم الضجر والملل، وأنّ ذلك يحملهم على العجز والفشل، فكان الأمر بالضّدّ.

ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفّر الدّين إليها

كان زين الدّين يوسف بن زين الدّين عليّ، صاحب إربل، قد حضر عند صلاح الدّين بعساكره، فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان.

وذكر العماد الكاتب في كتابه «البرق الشامي»[2] قال: «جئنا إلى مظفّر الدّين

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٦هـ.) ص ٦٨، تاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ١/٢٤٢.

(٢) لم يصلنا من هذا الكتاب سوى الجزء الثالث، بتحقيق الدكتور مصطفى الحيّاري، عمّان ١٩٨٧، والجزء الخامس، بتحقيق الدكتور فالح صالح حسين، عمّان ١٩٨٧، ولم يصلنا الجزء الذي ينقل منه ابن الأثير هنا.

نعزّيه بأخيه، وظننّا به الحزن، وليس له أخٌ غيره، ولا ولد يشغله عنه، فإذا[1] هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتمّ بالاحتياط على ما خلفه، وهو جالس في خيام أخيه المتوفّى، وقد قبض على جماعة من أمرائه، واعتقلهم، [وعجّل عليهم][2]، وما أغفلهم، منهم بُلداجي[3]، صاحب قلعة خُفْتِيذكان[4]، وأرسل إلى صلاح الدّين يطلب منه إربل لينزل عن حرّان والرُّها، فأقطعه إيّاها، وأضاف إليها شَهْرَزُور وأعمالها ودَرَبَنْدَ قرابلي، وبني قَفجاق؛ ولمّا مات زين الدّين كاتب مَن كان بإربل مجاهدَ الدّين قايماز لهواهم فيه، وحُسن سيرته فيهم، وطلبوه إليهم ليملّكوه، فلم يجسر هو ولا صاحبه عزّ الدّين أتابك مسعود بن مودود على ذلك، خوفاً من صلاح الدّين.

وكان أعظم الأسباب في تركها أنّ عزّ الدّين كان قد قبض على مجاهد الدّين، فتمكّن زين الدّين من إربل، ثمّ إنّ عز الدّين أخرج مجاهد الدّين من القبض، وولاّه نيابته، وقد ذكرنا ذلك أجمع.

فلمّا ولاّه النيابة عنه لم يمكّنه، وجعل معه إنساناً كان من بعض غلمان مجاهد الدّين، فكان يشاركه في الحكم ويحلّ عليه ما يعقده، فلحِق مجاهد الدّين من ذلك غيظ شديد، فلمّا طُلب إلى إربل قال لمن يثق به[5]: لا أفعل لئلاّ يحكم فيها فلان، ويكفّ يدي عنها؛ فجاء مظفّر الدّين إليها وملكها، وبقي غصّة في حلق البيت الأتابكيّ لا يقدرون على إساغتها. وسنذكر ما اعتمده معهم مرّة بعد أخرى، إن شاء الله تعالى.

ذكر مُلك الفرنج مدينة شِلْب وعودها إلى المسلمين

في هذه السنة ملك ابن الرنك[6]، وهو من ملوك الفرنج، غرب بلاد الأندلس، مدينة شِلْب وهي من كبار مدن المسلمين بالأندلس، واستولى عليها، فوصَل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب الغرب

---

(١) في الأوربية: «فإذ».
(٢) من الباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠.
(٣) في الباريسية ورقم ٧٤٠ «بلد أخي».
(٤) في نسخة جامعة باريس: «ختيه كان».
(٥) في الأوربية: «إليه».
(٦) ويقال: ابن الريق، وهو ملك البرتغال.

والأندلس، فتجهّز في العساكر الكثيرة وسار إلى الأندلس، وعبر المجاز، وسيّر طائفة كثيرة من عسكره في البحر، ونازلها وحصرها، وقاتل مَن بها قتالاً شديداً، حتّى ذلّوا وسألوا الأمان فأمّنهم وسلّموا البلد وعادوا إلى بلادهم.

وسيّر جيشاً من الموحّدين ومعهم جمع من العرب إلى بلاد الفرنج، ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة، وفتكوا في الفرنج، فخافهم ملك طُلَيْطُلَة من الفرنج، وأرسل يطلب الصلح، فصالحه خمس سنين، وعاد أبو يوسف إلى مَرّاكُش، وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم إظهار الخلاف، فبقوا متوقّفين حتّى دخلت سنة تسعين وخمسمائة، فتحرّكوا. وسنذكر خبرهم هناك، إن شاء الله تعالى[1].

ذكر الحرب بين غِياث[2] الدّين وسلطان شاه بخُراسان

كان سلطان شاه أخو خُوارزم شاه قد تعرّض إلى بلاد غياث الدّين ومُعِزّ الدّين مَلكَي الغُوريّة، من خُراسان، فتجهّز غياث الدّين وخرج من فِيرُوزْكُوه إلى خُراسان سنة خمسٍ وثمانين وخمسمائة، فبقي يتردّد بين بلاد الطالقان، وبَنْجَده[3]، ومَرْوَ، وغيرها يريد حرب سلطان شاه، فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ستّ وثمانين، فجمع[4] سلطان شاه عساكره، وقصد غياث الدّين، فتصافّا واقتتلا، فانهزم سلطان شاه، وأخذ غياث الدّين بعض بلاده وعاد إلى غَزْنَة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، تسلّم الخليفة الناصر لدين الله حَدِيثَةَ عانة، وكان سيّر إليها جيشاً حصروها سنة خمسٍ وثمانين [وخمسمائة] فقاتلوا عليها قتالاً شديداً، ودام الحصار، وقُتل من الفريقَيْن خلق كثير، فلمّا ضاقت عليهم الأقوات

---

(١) أنظر: المعجب للمراكشي ٤٠٢، والحلل الموشية ١٥٩، والبيان المغرب ٣/ ١٧٥ ـ ١٨٦، والروض المعطار ٣٤٣، ونفح الطيب ٦/ ١٦٠، ١٦١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٣١، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥. وجاء في الأنيس المطرب ص ١٥٥ أن محمداً بن يعقوب بن يوسف هو الذي واقع شلب وفتحها.

(٢) في الباريسة: «شهاب».

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «بجده».

(٤) في الأوربية: «جمع».

سلّموها على أقطاع عيّنوها، ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعاً، ثمّ تفرّقوا في البلاد واشتدّت الحاجة بهم، حتّى رأيتُ بعضهم وإنّه ليتعرّض بالسؤال وبعض خدم الناس، نعوذ بالله من زوال نعمته وتحوّل عافيته[1].

[الوَفَيَات]

وفي هذه السنة تُوفّي مسعود بن النادر[2] الصّفّار ببغداد، وكان مكثراً من الحديث، حَسَن الخطّ، خيّراً ثقةً.

ومنها تُوفّي أبو حامد محمّد بن محمّد بن عبد الله بن القاسم الشهرزُوريّ[3] بالموصل، وكان قاضيها، وقبلها وليَ قضاء حلب وجميع الأعمال بها، وكان رئيساً جواداً ذا مروءة عظيمة، يرجع إلى دين وأخلاق جميلة.

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/٣١١، وانظر: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٥هـ.) ص ٤١ باختصار.

(٢) انظر عن (مسعود بن النادر) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ رقم ٢٣٤.

(٣) انظر عن (الشهرزوري) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ رقم ٢٢٨.

٥٨٧
ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر عزّ الدّين صاحب الموصل الجزيرة

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، سار أتابك عزّ الدّين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها، وكان بها صاحبها سَنجَر شاه بن سيف الدّين غازي بن مودود، وهو ابن أخي عزّ الدّين.

وكان سبب حصره أنّ سَنجَر شاه كان كثير الأذى لعمّه عزّ الّدين، والشناعة عليه، والمراسلة إلى صلاح الدّين في حقّه، تارةً يقول إنّه يريد قصد بلادك، وتارةً يقول إنّه يكاتب أعداءك ويحثّهم على قصدك، إلى غير ذلك من الأمور المؤذية، وعزّ الدّين يصبر منه على ما يكره لأمور تارة للرَّحِم، وتارةً خوفاً من تسليمها إلى صلاح الدّين؛ فلمّا كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدّين، وهو على عكّا، في جملة مَن سار من أصحاب الأطراف، وأقام عنده قليلاً، وطلب دستوراً للعَود إلى بلده، فقال له صلاح الدّين: عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدّين، صاحب سنجار وغيرها، وهو أكبر منك، ومنهم ابن عمّك[1] عزّ الدّين، وهو أصغر منك، وغيرهم، ومتى فتحتَ هذا الباب اقتدى بك غيرُك؛ فلم يلتفت إلى قوله، وأصرّ على ذلك. وكان عند صلاح الدّين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لأنّه ظلمهم، وأخذ أموالهم وأملاكهم، فكان يخافه لهذا.

ولم يزل في طلب الإذْن في العَود إلى ليلة الفِطْر من سنة ستّ وثمانين [وخمسمائة]، فركب تلك الليلة في السَّحَر وجاء إلى خيمة صلاح الدّين وأذِن لأصحابه في المسير، فساروا بالأثقال، وبقي جريدة، فلمّا وصل إلى خيمة صلاح

(١) في (أ): «منهم عمك»، وفي (ب): «ابن عمك».

الدّين أرسل يطلب الإذْن عليه، وكان صلاح الدّين قد بات محموماً، وقد عرق، فلم يمكن أن يأذن له، فبقي كذلك متردّداً على باب خيمته إلى أن أذِن له، فلمّا دخل عليه هنّأه بالعيد، وأكبّ عليه يودّعه، فقال له: ما علمنا بصحّة عزمك على الحركة، فتصبر علينا حتّى نرسل ما جرت به العادة، فما يجوز أن تنصرف عنّا، بعد مُقامك عندنا، على هذا الوجه. فلم يرجع وودّعه وانصرف.

وكان تقيّ الدّين عمر ابن أخي صلاح الدّين قد أقبل من بلدة حماة في عسكره، فكتب إليه صلاح الدّين يأمره بإعادة سنجر شاه طوعاً أو كرهاً؛ فحكى له عن تقيّ الدّين أنّه قال: ما رأيتُ مثل سنجر شاه، لقيتُه بعَقَبَة فِيْق، فسألتُه عن سبب انصرافه، فغالطني، فقلتُ له: سمعتُ بالحال، ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديّته، فيضيع تعبك؛ وسألتُه العَود فلم يُصْغ إلى قولي، فكلّمني كأنّني بعض [مماليكه][(1)]، فلمّا رأيتُ ذلك منه قلتُ له: إن رجعتَ بالتي هي أحسن، وإلاّ أعدتُك كارهاً؛ فنزل عن دابّته وأخذ ذَيلي وقال: قد استجرتُ بك؛ وجعل يبكي، فعجِبتُ من حماقته أوّلاً، وذلّته ثانياً، فعاد معي.

فلمّا عاد بقي عند صلاح الدّين عدّة أيّام، وكتب صلاح الدّين إلى عزّ الدّين أتابك يأمره بقصد الجزيرة، ومحاصرتها، وأخذها، وأنّه يرسل إلى طريق سَنجَر شاه ليقبض عليه إذا عاد؛ فخاف عزّ الدّين أنّ صلاح الدّين قد فعل ذلك مكيدة ليشنّع عليه بنكث العهد، فلم يفعل شيئاً من ذلك بل أرسل إليه يقول: أريد خطّك بذلك ومنشوراً منك بالجزيرة؛ فتردّدت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ستّ وثمانين [وخمسمائة].

ودخلت هذه السنة فاستقرّت القاعدة بينهما، فسار عزّ الدّين إلى الجزيرة، فحصرها أربعة أشهر وأيّاماً آخرها شعبان، ولم يملكها بل استقرّت القاعدة بينه وبين سَنجَر شاه على يد رسول صلاح الدّين، فإنّه كان قد أرسله بعد قصدها يقول: إنّ صاحب سنجار، وصاحب إربل وغيرهما قد شفعا في سَنجَر شاه، فاستقرّ الصلح على أن لعزّ الدّين نصف أعمال الجزيرة، ولسَنجَر [شاه] نصفها، وتكون الجزيرة بيد سَنجر شاه من جملة النصف.

وعاد عزّ الدّين في شعبان إلى الموصل، وكان صلاح الدّين بعد ذلك يقول: ما

---

(1) من الباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠.

قيل لي عن أحد شيء من الشرّ فرأيته إلاّ كان دون ما يقال فيه، إلاّ سنجر شاه، فإنّه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتُها، فلمّا رأيتُه صغُر في عيني ما قيل فيه.

ذكر عبور تقيّ الدّين الفرات[1] ومُلكه حَرّان وغيرها من البلاد الجزريّة ومسيره إلى خِلاط ومُؤتة

في هذه السنة، في صفر، سار تقيّ الدّين من الشام إلى البلاد الجزريّة: حرّان والرُّها، كان قد أقطعه إيّاها عمّه صلاح الدّين، بعد أخذها من مظفّر الدّين، مضافاً إلى ما كان له بالشام، وقرّر معه أنّه يُقطع البلاد للجُند، ويعود وهم معه إليه ليتقوّى بهم على الفرنج؛ فلمّا عبر الفرات[1]، وأصلح حال البلاد، سار إلى ميّافارقين، وكانت له، فلمّا بلغها تجدّد له طمع في غيرها من البلاد المجاورة لها، فقصد مدينة حاني من ديار بكر، فحصرها وملكها، وكان في سبع مائة فرس، فلمّا سمع سيف الدّين بكتمر، صاحب خِلاط، بمُلكه حاني جمع عساكره وسار إليه، فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس، فلمّا التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خِلاط لتقيّ الدّين، بل انهزموا، وتبِعهم تقيّ الدّين، ودخل بلادهم.

وكان بكتمر قد قبض على مجد الدّين بن رشيق، وزير صاحبه شاه أرمن، وسجنه في قلعة هناك، فلمّا انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق، فوصل القاصد وتقيّ الدّين قد نازل القلعة، فأخذ الكتاب، وملك القلعة، وأطلق ابن رشيق، وسار إلى خِلاط فحصرها، ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضاً، فعاد عنها، وقصد مَلازكُرد وحصرها، وضيّق على من بها، وطال[2] مقامه عليها؛ [فلمّا ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أيّاماً ذكروها، فأجابهم إليها][3].

ومرض تقيّ الدّين، فمات قبل انقضاء الأجل بيومَيْن، وتفرَّقت العساكر عنها، وحمله ابنه وأصحابه ميّتاً إلى ميّافارقين، وعاد بكتمر فقوي أمره، وثبت مُلكه بعد أن أشرف على الزوال، وهذه الحادثة من الفَرَج بعد الشدّة، فإنّ ابن رشيق نجا من القتل، وبكتمر نجا من أن يؤخذ.

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) في الباريسة: «وكان».

(٣) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكّا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا، وكان أوّل مَن وصل منهم الملك فليب، ملك إفرنسيس، وهو من أشرف ملوكهم نَسَباً، وإن كان ملكه ليس بالكثير، وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأوّل، ولم يكن في الكثرة التي ظنّوها، وإنّما كان معه ستّ بُطس كبار عظام، فقويت به نفوس مَن على عكّا منهم، ولجّوا في قتال المسلمين الذين فيها.

وكان صلاح الدّين على شَفْرَعَمَ، فكان يركب كلّ يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد، وأرسل إلى الأمير أسامة، مستحفظ بيروت، يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة، وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكّا، ففعل ذلك، وسيّر الشواني في البحر، فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك انكلتار الفرنج، كان قد سيّرهم بين يديه، وتأخّر هو بجزيرة قبرس ليملكها، فأقبلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج، فاستظهر المسلمون عليهم، وأخذوهم، وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال.

وكتب أيضاً صلاح الدّين إلى مَن بالقرب[1] من النوّاب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا.

وأمّا الفرنج الّذين على عكّا، فإنّهم لازموا قتال مَن بها، ونصبوا عليها سبعة مجانيق رابع جُمادى الأولى، [فلمّا رأى صلاح الدّين ذلك تحوّل من شَفْرَعَم[2]، ونزل عليهم لئلاّ يتعب[3] العسكر كلّ يوم في المجيء إليهم والعَود عنهم، فقرُب منهم. وكانوا كلّما تحرّكوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم[4]، فيخفّ القتال عمّن بالبلد.

ثمّ وصل ملك انكلتار ثالث عشر جُمادى الأولى][5]. وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس، وأخذها من الروم، فإنّه لمّا وصل إليها غدر بصاحبها

---

(١) في (أ) و (ب): «بالزيب».

(٢) في الباريسة: «شعرعم»، وفي النسخة رقم ٧٤٠ «سفرعم».

(٣) في النسخة رقم ٧٤٠ «تتبع».

(٤) في النسخة رقم ٧٤٠ «بقتاله».

(٥) ما بين الحاصرتين من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

وملكها جميعاً، فكان ذلك زيادة في مُلكه وقوّة للفرنج؛ فلمّا فرغ منها سار عنها إلى مَن على عكّا من الفرنج، فوصل إليهم في خمسٍ وعشرين قطعةً كباراً مملوءةً رجالاً وأموالاً، فعظُم به شرّ الفرنج، واشتدّت نكايتهم في المسلمين. وكان رجل زمانه شجاعةً ومكراً وجَلَداً وصبراً، وبُلي المسلمون منه بالدّاهية التي لا مثل لها.

ولمّا وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدّين بتجهيز بُطْسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدّة والقُوت، فجُهّزت وسُيّرت من بيروت، وفيها سبع مائة مقاتل، فلقيها ملك إنكلتار مصادفة، فقاتلها، وصبر مَن فيها على قتالها، فلمّا أيسوا من الخلاص نزل مقدّم مَن بها إلى أسفلها، وهو يعقوب الحلبيّ مقدّم الجُنداريّة، يُعرف بغلام ابن شقتين، فخرقها خرقاً واسعاً لئلاّ يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذّخائر، فغرق جميع ما فيها.

وكانت عكّا بحاجة إلى رجالٍ لِما ذكرناه من سبب نقصهم.

ثمّ إنّ الفرنج عملوا دبّابات وزحفوا بها [فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها، ثُمّ عملوا كباشاً وزحفوا بها]، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد، وأخذوا تلك الكباش، فلمّا رأى الفرنج أنّ ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلاًّ كبيراً من التراب مستطيلاً، وما زالوا يقرّبونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذًى، حتّى صار على نصف عُلُوّه، فكانوا يستظلّون به، ويقاتلون من خلفه، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فحينئذٍ عظُمت المصيبة على مَن بعكّا من المسلمين، فأرسلوا إلى صلاح الدّين يعرّفونه حالهم، فلم يقدر لهم على نفع.

ذكر مُلك الفرنج عكّا

في يوم الجمعة، سابع عشر جُمادى الآخرة، استولى الفرنج، لعنهم الله، على مدينة عكّا، وكان أوّل وهن دخل على مَن بالبلد أنّ الأمير سيف الدّين عليّ بن أحمد الهكّاريّ، المعروف بالمشطوب، كان فيها، ومعه عدّة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم، خرج إلى ملك إفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يُطلق المسلمين الذين فيه، ويمكّنهم من اللحاق بسلطانهم، فلم يُجِبه إلى ذلك، فعاد عليُّ بن أحمد إلى البلد، فوهن مَن فيه، وضعُفت نفوسهم، وتخاذلوا، وأهمّتهم أنفسهم.

ثمّ إنّ أميرَيْن ممّن كان بعكّا، لمّا رأوا ما فعلوا بالمشطوب، وأنّ الفرنج لم

يجيبوا إلى الأمان، اتخذوا الليل جَمَلاً، وركبوا في شينيّ صغير، وخرجوا سرّاً من أصحابهم، ولحِقوا بعسكر المسلمين، وهم عزّ الدّين أرسل الأسديّ، وابن عزّ الدّين جاولي، ومعهم غيرهم، فلمّا أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهْناً إلى وهْنهم، وضُعفاً إلى ضعفهم، وأيقنوا بالعطب.

ثمّ إنّ الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدّين في معنى تسليم البلد، فأجابهم إلى ذلك، والشرط بينهم أن يُطلق من أسراهم بعدد مَن في البلد ليطلقوا هم مَن بعكّا، وأن يسلّم إليهم صليب الصلبوت، فلم يقنعوا بما بذل، فأرسل إلى مَن بعكّا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكّا يداً واحدة ويسيروا مع البحر ويحملوا على العدوّ حملة واحدة، ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنّه يتقدّم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره، يقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به، فشرعوا في ذلك، واشتغل كلّ منهم باستصحاب ما يملكه، فما فرغوا من أشغالهم حتّى أسفر الصبح، فبطل ما عزموا عليه لظهوره.

فلمّا أصبحوا عجز الناس عن[1] حفظ البلد، وزحف إليهم الفرنج بحدّهم وحديدهم، فظهر مَن بالبلد على سوره يحرّكون أعلامهم ليراها المسلمون، وكانت هي العلامة إذا حزبهم أمرٌ، فلمّا رأى المسلمون ذلك ضجّوا بالبكاء والعويل، وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم ظنّاً[2] منهم أنّ الفرنج يشتغلون عن الذين بعكّا، وصلاح الدّين يحرّضهم، وهو في أوّلهم[3].

وكان الفرنج قد زحفوا من[4] خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد، فقرُب[5] المسلمون من خنادقهم، حتّى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم، فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين، وتركوا في مقابلة مَن بالبلد مَن يقاتلهم.

فلمّا رأى المشطوب أنّ صلاح الدّين لا يقدر على نفع، ولا يدفع عنهم ضرّاً، خرج إلى الفرنج، وقرّر معهم تسليم البلد، وخروج مَن فيه بأموالهم وأنفسهم، وبذل

---

(١) في الأوربية: «من».
(٢) في الأوربية: «طلباً».
(٣) في (ب): «وصلاح الدين في أوائلهم وهو».
(٤) في الأوربية: «خفّوا عن».
(٥) في (أ): «فقرب عليهم».

لهم عن ذلك مائتَيْ ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين، وإعادة صليب الصلبوت، وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور، فأجابوه إلى ذلك، وحلفوا له عليه، وأن تكون مدّة تحصيل المال والأسرى إلى شهرَيْن.

فلمّا حلفوا له سلّم البلد إليهم، ودخلوه سِلماً، فلمّا ملكوه غدروا واحتاطوا على مَن فيه من المسلمين وعلى أموالهم، وحبسوهم، وأظهروا أنّهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم، وراسلوا صلاح الدّين في إرسال المال والأسرى والصليب، حتّى يُطلقوا مَن عندهم، فشرع في جمع المال، وكان هو لا مال[1] له، إنّما يخرج ما يصل إليه من دخْل البلاد أوّلاً بأوّل.

فلمّا اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم، فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتّى يعود فيستحلفهم على إطلاق أصحابه، وأن يضمن الدّاوية ذلك، لأنّهم أهل تديُّن يرون الوفاء. فراسلهم صلاح الدّين في ذلك، فقال الدّاويّة: لا نحلف ولا نضمن لأنّنا نخاف غدر مَن عندنا؛ وقال ملوكهم: إذا سلّمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا؛ فحينئذٍ علم صلاح الدّين عزْمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً، وأعاد الرسالة إليهم، وقال: نحن نسلّم إليكم هذا المال والأسرى والصليب، ونعطيكم رهناً على الباقي، وتطلقون أصحابنا، وتضمن الدّاويّة الرهن، ويحلفون على الوفاء لهم؛ فقالوا: لا نحلف، إنّما ترسل إلينا المائة ألف دينار التي حصَّلتَ، والأسرى، والصليب، ونحن نطلق من أصحابكم مَن نريد ونترك مَن نريد حتّى يجيء باقي المال؛ فعلم الناس حينئذٍ غدرهم، وإنّما يُطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له[2]، ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال، ويطلبون منهم الفِداء، فلم يُجبهم السلطان إلى ذلك.

فلمّا كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب، ركب الفرنج، وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل، وركب المسلمون إليهم وقصدوهم، وحملوا عليهم، فانكشفوا عن موقفهم[3]، وإذ أكثر مَن كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وقتلوهم، واستبْقوا الأمراء والمقدّمين ومَن كان له مال، وقتلوا مَن سواهم من

---

(١) في الأوربية: «الأمان».
(٢) في (أ): «به»، وفي (ب): «بهم».
(٣) في (ب): «موضعهم».

سوادهم وأصحابهم ومَن لا مال له، فلمّا رأى صلاح الدّين ذلك تصرّف في المال الذي كان جمعه، ورد الأسرى والصليب إلى دمشق[1].

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عَسقلان وتخريبها

لمّا فرغ الفرنج، لعنهم الله، من إصلاح أمر عكّا، برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب، وساروا مُستَهَلّ شعبان نحو حيفا مع شاطىء البحر لا يفارقونه؛ فلمّا سمع صلاح الدّين برحيلهم نادى في عسكره[2] بالرّحيل فساروا.

وكان على اليَزَك، ذلك اليوم، الملك الأفضل ولد صلاح الدّين، ومع سيف الدّين إيازكوش[3] وعزّ الدّين جورديك، وعدّة من شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس، ووقعوا على ساقة الفرنج، فقتلوا منها جماعة، وأسروا جماعة.

وأرسل الأفضل إلى والده يستمدّه ويعرّفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنّهم ما ركبوا بأهبَة الحرب، وإنّما كانوا على عزم المسير لا غير، فبطل المدد وعاد ملك الإنكلتار إلى ساقة الفرنج، فحماها، وجمعهم، وساروا حتّى أتوا حيفا، فنزلوا بها، ونزل المسلمون بقَيْمُون، قرية بالقرب منهم، وأحضر الفرنج من عكّا عوض مَن قُتل منهم وأُسر ذلك اليوم، وعوض ما هلك من الخيل، ثمّ ساروا إلى قَيساريّة، والمسلمون يسايرونهم ويتخطّفون منهم مَن قدروا عليه فيقتلونه، لأنّ صلاح الدّين كان قد أقسم أنّه لا يظفر بأحدٍ منهم إلاّ قتله بمن قتلوا ممّن كان بعكّا.

فلمّا قاربوا قَيساريّة لاصقهم المسلمون، وقاتلوهم أشدّ قتال، فنالوا منهم نيلاً

---

(1) أنظر عن سقوط عكا في: الفتح القسّي ٤٨٤ ـ ٥٣٠، والنوادر السلطانية ١٥٥ ـ ١٧٥، ومفرّج الكروب ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٨، وتاريخ الزمان ٢١٩، ٢٢٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٢، وزبدة الحلب ٣/ ١١٩، ١٢٠، والمغرب في حُلي المغرب ١٦٧ ـ ١٧٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٧٩، والدر المطلوب ١٠٦ ـ ١٠٩، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٣٢، ٤٣٣، ومرآة الزمان ج ٨، ق ١/ ٤٠٨، والعبر ٤/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٧هـ.) ص ٦٩، ٧٠، ودول الإسلام ٢/ ٩٨، ٩٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٢٥، ٣٢٦، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٠٥، وشفاء القلوب ١٧٠، ١٧١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٤٤ ـ ٤٧، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٣ ـ ٢٥، وتاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ١/ ١٩٦ ـ ١٩٨.

(2) في الأوربية: «عسكر».

(3) في (ب): «اياركوح».

كثيراً، ونزل الفرنج بها، وبات المسلمون قريباً منهم، فلمّا نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في اليَزَك، فقتلوا منهم وأسروا، ثمّ سار من قَيساريّة إلى أرسوف، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها، ولم[1] يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق، فلمّا وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة مُنكَرة وألحقوهم بالبحر، ودخله بعضهم فقُتل منهم كثير.

فلمّا رأى الفرنج ذلك اجتمعوا، وحملت الخيّالة على المسلمين حملة رجلٍ واحد، فولّوا منهزمين لا يلوي أحدٌ على أحد. وكان كثير من الخيّالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة، فلمّا كان ذلك اليوم كانوا على حالهم، فلمّا انهزم المسلمون عنهم قُتل خلق كثير، والتجأ المنهزمون إلى القلب، وفيه صلاح الدّين، فلو علم الفرنج أنّها هزيمة لَتَبِعوهم واستمرت[2] الهزيمة وهلك المسلمون، لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر، فدخلوها[3] وظنّها الفرنج مكيدة، فعادوا، وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق، وقُتل من الفرنج كَنْد كبير من طواغيتهم، وقُتل من المسلمين مملوك لصلاح الدّين اسمه أياز الطويل، وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله.

فلمّا نزل الفرنج نزل المسلمون وأَعِنّة خيلهم بأيديهم، ثمّ سار الفرنج إلى يافا فنزلوها، ولم يكن بها أحد من المسلمين، فملكوها.

ولمّا كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه، سار صلاح الدّين عنهم إلى الرملة، واجتمع بأثقاله بها، وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب عَسقلان، وقالوا له: قد رأيتَ ما كان منّا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عَسقلان ووقفنا في وجوههم نصدّهم عنها[4] فهم لا شكّ يقاتلوننا[5] لننزاح عنها فينزلوا[6] عليها، فإذا كان ذلك عُدْنا إلى مثل ما كنّا عليه على عكّا، ويعظُم الأمر علينا، لأنّ العدوّ قد قوي بأخذ عكّا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضعُفنا نحن بما

---

(١) في (أ): «سبقوهم إليها جريدة ولم».
(٢) في الأوربية: «لتبعهم واشتهرت».
(٣) في (ب): «فدخلوها المسلمون».
(٤) في (أ): «عنا».
(٥) في الأوربية: «يقاتلونا».
(٦) في الأوربية: «وينزلون».

خرج عن أيدينا، ولم تَطُل المدّة حتّى نستجدّ غيرها.

فلم تسمح نفسه بتخريبها، وندب الناس إلى دخولها وحِفْظها، فلم يُجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إنّ أردتَ حفظها فادخل أنت معنا، أو بعض أولادك الكبار، وإلاّ فما يدخلها منّا أحد لئلاّ يصيبنا ما أصاب أهل عكّا؛ فلمّا رأى الأمر كذلك سار إلى عَسقلان، وأمر بتخريبها، فخربت تاسع عشر شعبان، وأُلقيتْ حجارتها في البحر، وهلك فيها من الأموال والذّخائر التي للسلطان والرعيّة ما لا يمكن حصره، وعفّى أثرها حتّى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع.

ولمّا سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها، وكان المركيس، لعنه الله، لمّا أخذ الفرنج عكّا قد أحسّ من ملك إنكلتار بالغدر به، فهرب من عنده إلى مدينة صور، وهي له وبيده، وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة، وكلّ هذه الحروب هو أثارها، فلمّا خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له: مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ويتقدّم على الجيوش، تسمع أنّ صلاح الدّين قد خرّب عسقلان وتقيم مكانك؟ يا جاهل، لمّا بلغك أنّه قد شرع في تخريبها كنتَ سرتَ إليه مُجِدّاً فرحّلتَه وملكتَها صفْواً بغير قتال ولا حصار، فإنّه ما[1] خرّبها إلاّ وهو عاجز عن حفظها. وحقّ المسيح لو أنّني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برجٍ واحد.

فلمّا خربت عسقلان رحل صلاح الدّين عنها ثاني شهر رمضان، ومضى إلى الرملة فخرّب حصنها وخرّب كنيسة لُدّ، وفي مدّة مُقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيّوب تُجَاهَ الفرنج، ثمّ سار صلاح الدّين إلى القدس بعد تخريب الرملة، فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرّر قواعده وأسبابه، وما يحتاج إليه، وعاد إلى المخيّم ثامن رمضان.

وفي هذه الأيّام خرج ملك إنكلتار من يافا، ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم، فوقع به نفر من المسلمين، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وكاد ملك إنكلتار يؤسر، ففداه بعض أصحابه بنفسه، فتخلّص الملك وأُسر ذلك الرجل.

وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر [فيها] المسلمون.

---

(١) في الأوربية: «لا».

ذكر رحيل الفرنج إلى نطرون

لمّا رأى صلاح الدّين أنّ الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها، وشرعوا في عمارتها، رحل من منزلته إلى النطرون ثَالث عشر رمضان، وخيّم به، فراسله ملك إنكلتار يطلب المهادنة، فكانت الرسل تتردّد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، أخي صلاح الدّين، فاستقرّت القاعدة أنّ ملك إنكلتار يُزوّج أخته من العادل، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، وتكون عكّا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك إنكلتار، مُضافاً إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتْها من زوجها، وأن يرضى الدّاويّة بما يقع الاتّفاق عليه، فعرض العادل ذلك على صلاح الدّين، فأجاب إليه، فلمّا ظهر الخبر اجتمع القِسّيسون، والأساقفة، والرهبان إلى أخت ملك إنكلتار وأنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة، وقيل: كان المانع منه غير ذلك، والله أعلم.

وكان العادل وملك إنكلتار يجتمعان(١) بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح، وطلب من العادل أن يُسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنّية تضرب بالجَنْك، فغنّت له، فاستحسن ذلك، ولم يتمّ بينهما صلح، وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعةً ومكراً.

ثمّ إنّ الفرنج أظهروا العزم على قصد البيت المقدّس، فسار صلاح الدّين إلى الرّملة، جريدة، وترك الأثقال بالنطرون، وقرب من الفرنج، وبقي عشرين يوماً ينتظرهم، فلم يبرحوا، فكان بين الطائفتَيْن، مدّة المقام، عدّة وقعات في كلّها ينتصر المسلمون على الفرنج، وعاد صلاح الدّين إلى النطرون، ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة، على عزْم قصد البيت المقدّس، فقرُب بعضهم من بعض، فعظُم الخَطْب واشتدّ الحذر، فكان كلّ ساعة يقع الصوت في العسكرَيْن بالنفير فلقوا من ذلك شدّة شديدة؛ وأقبل الشتاء، وحالت الأوحال(٢) والأمطار بينهما.

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لمّا رأى صلاح الدّين أنّ الشتاء قد هجم، والأمطار متوالية متتابعة، والنّاس منها في ضنْك وحَرَج، ومن شدَّة البرد ولبس السلاح والسّهر في تعب دائم، وكان كثير من

---

(١) في الأوربية: «يجتمعون».

(٢) في الأوربية: «الأحوال».

العساكر قد طال بيكارها، فأذِن لهم في العَود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة، وسار هو إلى البيت المقدّس فيمن بقي معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد، فاستراحوا ممّا كانوا فيه، ونزل هو بدار الأقسا مجاور بِيعة قُمامة، وقدم إليه عسكر من مصر مقدَّمهم الأمير أبو الهيجاء السّمين، فقويت نفوس المسلمين بالقدس.

وسار الفرنج من الرملة إلى النّطرون ثالث ذي الحجّة، على عزم قصد القدس، فكانت بينهم وبين يَزَك المسلمين وقعات، أسر المسلمون في وقعة منها نيِّفاً وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجعانهم، وكان صلاح الدّين لمّا دخل القدس أمر بعمارة سوره، وتجديد ما رثّ منه[1]، فأحكم الموضع الذي مُلك البلد منه، وأتقنه، وأمر بحفر خندق خارج الفصيل، وسلّم كلّ برج إلى أمير يتولّى عمله، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، وأرسل أتابك عزّ الدّين مسعود، صاحب الموصل، جماعة من الحصّاصين، ممّن له في قطع الصخر اليدُ الطُولَى، فعملوا له هناك بُرجاً وبدنة، وكذلك جميع الأمراء.

ثمّ إنّ الحجارة قلّت عند العَمّالين، فكان صلاح الدّين، رحمه الله، يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابّته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر، فكان يجمع عنده من العمّالين في اليوم الواحد ما يعملونه عدّة أيّام.

ذكر عود الفرنج إلى الرملة

في العشرين من ذي الحجّة عاد الفرنج إلى الرملة، وكان سبب عودهم أنّهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل، فلمّا أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على مَن يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم، ثمّ إنّ ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميّين: صوّروا لي[2] مدينة القدس، فإنّي ما رأيتُها؛ فصوّروها له، فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعاً[3] يسير من جهة الشمال، فسأل عن الوادي وعن عمقه، فأُخبر أنه عميق، وعرُ المسلك.

فقال: هذه مدينة لا يمكن حصرُها ما دام صلاح الدّين حيّاً[4] وكلمة المسلمين

---

(١) في (أ): «ما رم به».

(٢) في الأوربية: «إليّ».

(٣) في الأوربية: «موضع».

(٤) في الأوربية: «مهما صلاح الدين حي».

مجتمعة، لأنّنا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه، وإن نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر، جمع صلاح الدّين عسكره وواقع إحدى الطائفتَيْن، ولم يمكن الطائفة الأخرى إنجاد أصحابهم، لأنّهم إنْ فارقوا مكانهم خرج مَن بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه، وإن تركوا فيه مَن يحفظه وساروا نحو أصحابهم، فإلى أن يتخلّصوا من الوادي ويلحقوا بهم يكون صلاح الدّين قد فرغ منهم، هذا سوى ما يتعذّر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات.

فلمّا قال لهم ذلك علموا صدقه، ورأوا قلّة الميرة عندهم، وما يجري للجالبين لها من المسلمين، فأشاروا عليه بالعَود إلى الرملة، فعادوا خائبين خاسرين[1].

ذكر قتل قزل أرسلان

في شعبان من هذه السنة قُتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن إيلدكز، وقد ذكرنا أنّه ملك البلاد، بعد وفاة أخيه البهلوان، ملك أرّان، وأذربيجان، وهمذان، وأصفهان، والريّ، وما بينها، وأطاعه صاحب فارس وخُوزستان، واستولى على السلطان طُغرُل بن أرسلان بن طُغرُل، فاعتقله في بعض القلاع، ودانت له البلاد.

وفي آخر أمره سار إلى أصفهان، والفِتَن بها متّصلة من لَدُن تُوفّي البهلوان إلى ذلك الوقت، فتعصّب على الشافعيّة، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان، وخطب لنفسه بالسلطنة، وضرب النُّوَب الخمس، ثمّ إنّه دخل ليلةً قُتل إلى منزله لينام، وتفرّق أصحابه، فدخل إليه مَن قتله على فراشه، ولم يُعرف قاتله، فأخذ أصحابه صاحب بابه ظنّاً وتخميناً؛ وكان كريماً حسن الأخلاق، يحبّ العدل ويؤثره، ويرجع إلى حلم وقلّة عقوبة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قدِم معزّ الدّين قيصر شاه بن قلج أرسلان، صاحب بلاد الروم، على صلاح الدّين في رمضان، وكان سبب قدومه أنّ والده عزّ الدّين قلج أرسلان فرّق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا مَلَطْيَة وأعطى ولده قطب الدّين ملك شاه

---

(١) النوادر السلطانية ١٨٩، الفتح القسّي ٥٥١، مرآة الزمان ج ٨، ق ١/ ٤١١، مفرّج الكروب ٢/ ٣٧٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٧هـ.) ص ٧٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٠٠.

سِيواس، فاستولى قُطب الدّين على أبيه، وحجر عليه، وأزال حكمه، وألزمه أن يأخذ مَلَطْية من أخيه هذا ويسلّمها إليه، فخاف معز الدّين، فسار إلى صلاح الدّين ملتجئاً إليه، معتضداً به، فأكرمه صلاح الدّين، وزوّجه بابنة أخيه الملك العادل، فامتنع قُطب الدّين من قصده، وعاد معزّ الدّين إلى مَلَطْيَة في ذي القعدة.

وحدّثني مَن أثق به قال: رأيتُ صلاح الدّين وقد ركب ليودّع معزّ الدّين هذا، فترجّل له معزّ الدّين، وترجّل صلاح الدّين، وودّعه راجلاً، فلمّا أراد الركوب عضده معزّ الدّين هذا، وأركبه، وسوّى ثيابه علاء الدّين خُرمشاه بن عزّ الدّين، صاحب الموصل، قال: فعجبتُ من ذلك، وقلتُ ما تبالي يا ابن أيّوب أيَّ موتة تموت؟ يركّبك ملك سلجوقيّ وابن أتابك زنكي.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوفّي حسام الدين محمّد بن عمر بن لاجين[1] ، وهو ابن أخت صلاح الدّين؛ وعلم الدّين سليمان بن جندر، وهو من أكابر أمراء صلاح الدّين أيضاً.

وفي رجب تُوفّي الصَّفِيّ بن القابض، وكان متولّي دمشق لصلاح الدّين، يحكم في جميع بلاده.

---

(١) انظر عن (ابن لاجين) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ٢٧٨ رقم ٢٧٣.

٥٨٨
ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ذكر عمارة الفرنج عَسقلان

في هذه السنة، في المحرّم، رحل الفرنج نحو عَسقلان وشرعوا في عمارتها. وكان صلاح الدّين بالقدس، فسار ملك إنكلتار، جريدة، من عَسقلان إلى يَزَك المسلمين، فواقعهم، وجرى بين الطائفتَيْن قتال شديد انتصف [فيه] بعضهم من بعض.

وفي مدّة مُقام صلاح الدّين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج، فتارة تواقع طائفة منهم، وتارة تقطع الميرة عنهم، ومن جملتها سريّة كان مقدّمها فارس الدّين ميمون القَصْريّ، وهو من مقدّمي المماليك الصلاحيّة، خرج على قافلةٍ كبيرة للفرنج، فأخذها وغنم ما فيها[(١)].

ذكر قتل المركيس ومُلك الكَند هري

في هذه السنة، في ثالث عشر ربيع الآخر، قُتل المركيس الفرنجيّ، لعنه الله، صاحب صور، وهو أكبر شياطين الفرنج.

وكان سببب قتله أنّ صلاح الدّين راسل مقدّم الإسماعيليّة [بالشام]، وهو سنان، وبذل له أن يرسل من يقتل ملك إنكلتار، وإنْ قتلَ المركيس فله عشرة آلاف دينار، فلم يمكنهم قتلُ ملك إنكلتار، ولم يرَه سنان مصلح لهم لئلاّ يخلو وجه صلاح الدّين من الفرنج ويتفرّغ لهم، وشَره في أخذ المال، فعدل إلى قتل المركيس، فأرسل رجلَيْن في زيّ الرهبان، واتّصلا بصاحب صيدا، وابن بارزان، صاحب الرَّمْلَة[(٢)]، وكانا مع

---

(١) الفتح القسّي ٥٨٣، تاريخ الزمان ٢٢٣، تاريخ مختصر الدول ٢٢٣، المختصر في أخبار البشر ٨٢/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٧٧، تاريخ ابن الوردي ١٠٥/٢، تاريخ ابن خلدون ٣٢٨/٥، العسجد المسبوك ٢١٦/٢، السلوك ج ١، ق ١٠٨/١، تاريخ ابن سباط ٢٠٣/١، تاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٥٨/٢.

(٢) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «صالة».

المركيس بصور، فأقاما معهما ستّة أشهر يُظهران العبادة، فأنِس بهما المركيس، ووثق بهما[1]، فلمّا كان بعد التاريخ عمل الأسقف بصور دعوة للمركيس، فحضرها، وأكل طعامه، وشرب مُدامه، وخرج من عنده، فوثب عليه الباطنيّان المذكوران، فجرحاه جراحاً وثيقة، وهرب أحدهما، ودخل كنيسة يختفي فيها، فاتّفق أنّ المركيس حُمل إليها ليشدّ[2] جراحه، فوثب عليه ذلك الباطنيّ فقتله، وقُتل الباطنيّان بعده[3]

ونسب الفرنج قتله إلى وضْع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشاميّ، فلمّا قُتل وليَ بعده مدينة صور كَند من الفرنج، من داخل البحر، يقال له الكَند هري، وتزوّج بالملكة في ليلته، ودخل بها وهي حامل، وليس الحمل عندهم ممّا يمنع النكاح.

وهذا الكند هري هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه، وابن أخت ملك إنكلتار من أمّه، وملك كند هري هذا بلاد الفرنج بالساحل بعد عَود ملك إنكلتار، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسقط من سطح فمات؛ وكان عاقلاً، كثير المداراة والاحتمال.

ولمّا رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل كَند هري هذا إلى صلاح الدّين يستعطفه، ويستميله، ويطلب منه خلعة، وقال: أنت تعلم أنّ لبس القباء والشربوش عندنا عيب، وأنا ألبسهما منك محبّة لك؛ فأنفذ إليه خلعة سنيّة منها القباء والشربوش، فلبسهما بعكّا[4].

---

(١) في الأوربية: «إليهما».

(٢) في (أ): «الشدة».

(٣) الفتح القسّي ٥٨٩، ٥٩٠، تاريخ الزمان ٢٢٣، مرآة الزمان ج ٨، ق ١/ ٤٢٠، الروضتين ٢/ ١٩٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨٢، مفرّج الكروب ٢/ ٣٨٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٧٧، ٧٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٥، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٨، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٢٨، تاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ٦٣، ٦٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٠٣.

(٤) النوادر السلطانية ٢٣٤، الفتح القسّي ٦٠٣ ـ ٦٠٥، تاريخ مختصر الدول ٢٢٣، تاريخ الزمان ٢٢٤، مفرّج الكروب ٢/ ٣٩٤، زبدة الحلب ٣/ ١٢٢، مرآة الزمان ٨/ ٤٢١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨٢، الدر المطلوب ١١١، دول الإسلام ٢/ ١٠٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٧٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٥، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٠، صبح الأعشى ٥/ ٣٧٥، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٢٩، ٣٣٠، السلوك ج ١، ق ١/ ١١٠، العسجد المسبوك ٢/ ٢١٧، النجوم الزاهرة ٦/ ٤٧، ٤٨، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٠٤.

ذكر نهب بني عامر البصرة[1]

في هذه السنة، في صفر، اجتمع بنو عامر في خلق كثير، وأميرهم اسمه عُمَيْرة، وقصدوا البصرة، وكان الأمير بها اسمه محمّد بن إسمعيل، ينوب عن مُقطعها الأمير طُغْرل، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، فوصلوا إليها يوم السبت سادس صفر. فخرج إليهم الأمير محمّد فيمنْ معه من الجُند، فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان، بجانب الخُريبة[2]، ودام القتال إلى آخر النهار، فلمّا جاء الليل ثلّم العرب في السور عدّة ثُلم، ودخلوا البلد من الغد، فقاتلهم أهل البلد، فقُتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقَيْن، ونهبت العرب الخانات بالشاطىء وبعض محالّ البصرة، وعبر أهلها إلى شاطىء الملاّحين، وفارق العرب البلد في يومهم وعاد أهله إليه.

وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد أنّهم بلغهم أنّ خَفاجة والمنتفق قد قاربوهم، فساروا إليهم وقاتلوهم أشدّ قتال، فظفرت عامرٌ، وغنمت أموال خَفاجة والمنتفق، وعادوا إلى البصرة بُكرة الاثنين، وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعاً كثيراً، فلمّا عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومَن اجتمع معهم، فلم يقوموا للعرب وانهزموا، ودخل العرب البصرة ونهبوها، وفارق البصرة أهلها، ونُهبت أموالهم، وجرت أمور عظيمة، ونُهبت القسامل[3] وغيرها يومين، وفارقها العرب وعاد أهلها إليها، وقد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة، والله أعلم[4].

ذكر ما كان من ملك إنكلتار

في تاسع جُمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الدّاروم، فخرّبوه، ثمّ ساروا إلى البيت المقدّس وصلاح الدّين فيه، فبلغوا بيت نَوبة[5].

وكان سبب طمعهم أنّ صلاح الدّين فرّق عساكره الشرقيّة وغيرها لأجل الشتاء،

---

(١) العنوان من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) في الباريسية: «الحربة».

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «نهب أمل».

(٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٧٨.

(٥) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٨٥.

وليستريحوا[1]، وليحضر البدل عوضهم، وسار بعضهم مع ولده الأفضل وأخيه العادل إلى البلاد الجزريّة، لِما نذكره إن شاء اللّه تعالى، وبقي من حلقته الخاصّ بعض العساكر المصريّة، فظنّوا أنّهم ينالون غرضاً، فلمّا سمع صلاح الدّين بقربهم منه فرّق أبراج البلد على الأمراء، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قَلُوْنَيَةَ[2]، سلْخ الشهر، وهي [على] فرسخين من القدس، فصبّ المسلمون عليهم البلاء، وتابعوا إرسال السرايا فبُلِيَ[3] الفرنج منهم بما لا قِبَل لهم به، وعلموا أنّهم إذا نازلوا القدس كان الشرّ إليهم أسرع والتسلّط عليهم أمكن، فرجعوا القهقرى، وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام.

ولمّا أبْعَد الفرنج عن يافا سيّر صلاح الدّين سريّة من عسكره إليها، فقاربوها، وكمنوا عندها، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة، فخرجوا عليهم، فقتلوا منهم وأسروا وغنموا، وكان ذلك آخر جُمادى الأولى.

ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين وقَفَل

في تاسع جُمادى الآخرة بلغ الفرنجَ الخبرُ بوصول عسكر من مصر، ومعهم قَفَل كبير، ومقدّم العسكر فَلَكُ الدّين سليمان، أخو العادل لأمّه، ومعه عدّة من الأمراء، فأسرى الفرنج إليهم، فواقعهم بنواحي الخليل، فانهزم الجُند، ولم يُقتل منهم رجل من المشهورين إنّما قُتل من الغلمان والأصحاب، وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم؛ وأمّا القَفَل فإنّه أُخذ بعضه، وصعِد من نجا جبل الخليل، فلم يقدم الفرنج على اتّباعهم، ولم اتّبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم؛ وتمزّق من نجا من القفل، وتقطّعوا، ولقوا شدّة إلى أن اجتمعوا.

حكى لي بعض أصحابنا، وكنّا قد سيّرنا معه شيئاً للتّجارة إلى مصر، وكان قد خرج في هذا القَفَل، قال: لمّا وقع الفرنج علينا كنّا قد رفعنا أحمالنا للسير، فحملوا علينا وأوقعوا بنا، فضربتُ أحمالي وصعدتُ الجبل ومعي عدّة أحمال لغيري. فلحِقنا قوم من الفرنج، فأخذوا الأحمال التي في صُحبتي. وكنتُ بين أيديهم بمقدار رمية سهم، فلم يصلوا إليّ، فنجوتُ بما معي، وسرتُ لا أدري أين أقصد، وإذ قد لاح لي

---

(١) في الأوربية: «ويستريحوا».
(٢) في (أ): «قلوبية»
(٣) في الأوربية: «قِبَل».

بناء كبير على جبل، فسألتُ عنه، فقيل لي: هذا الكَرَك؛ فوصلتُ إليه ثمّ عُدْتُ منه إلى القدس سالماً. وسار هذا الرجل من القدس سالماً، فلمّا بلغ بُزاعة، عند حلب، أخذه الحراميّة، فنجا من العَطَب، وهلك عند ظنّه السلامة.

ذكر سير الأفضل والعادل إلى بلاد الجزيرة

قد تقدّم ذِكر موت تقيّ الدّين عمرَ ابن [أخي] صلاح الدّين، واستيلاء ولده ناصر الدّين محمّد على بلاد الجزيرة، فلمّا استولى عليها أرسل إلى صلاح الدّين يطلب تقريرها عليه، مضافاً إلى ما كان لأبيه بالشام، فلم ير صلاح الدّين أنّ مثل تلك البلاد تُسلّم إلى صبّي، فما أجابه إلى ذلك، فحدّث نفسه بالامتناع على صلاح الدّين لاشتغاله بالفرنج، فطلب الأفضل عليُّ بن صلاح الدّين من أبيه أن يُقطعه ما كان لتقيّ الدّين، وينزل عن دمشق، فأجابه إلى ذلك، وأمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب في جماعة من العسكر، وكتب صلاح الدّين إلى أصحاب البلاد الشرقيّة، مثل صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب ديار بكر، وغيرها، يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل.

فلمّا رأى ولد تقيّ الدّين ذلك علم أنّه لا قوّة له بهم، فراسل الملكَ العادلَ [أبا بكر بن أيّوب]، عمّ أبيه، يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدّين، فأنهى ذلك إلى صلاح الدّين، وأصلح حاله، وقرّر قاعدته بأن يقرّر له ما كان لأبيه بالشام، وتؤخذ منه البلاد الجزريّة، واستقرّت القاعدة على ذلك.

وأقطع صلاح الدّين البلاد الجزريّة، وهي حرّان، والرُّها، وسُمَيسَاط، وميّافارقين، وحاني العادل، وسيّره إلى ابن تقيّ الدّين ليتسلّم منه البلاد، ويُسيّره إلى صلاح الدّين، ويُعيد الملك الأفضل أين أدركه؛ فسار العادل، فلحِق الأفضل بحلب، فأعاده إلى أبيه، وعبر العادل الفرات[1]، وتسلّم البلاد من ابن تقيّ الدّين وجعل نوّابه فيها، واستصحب ابن تقيّ الدّين معه، وعاد إلى صلاح الدّين بالعساكر، وكان عَوده في جُمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر عود الفرنج إلى عكّا

لمّا عاد الملك الأفضل فيمن معه، وعاد الملك العادل وابن تقيّ الدّين فيمن

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

معهما من عساكرهما، ولحِقتْهم العساكر الشرقيّة، عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سِنجار وغير ذلك من البلاد، واجتمعت العساكر بدمشق، أيقن الفرنج أنّهم لا طاقة لهم بها، إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكّا يُظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها، فأمر صلاح الدّين ولدَه الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقيّة جميعها، معارضاً للفرنج في مسيرهم نحوها، فسار إلى مَرج العُيون، واجتمعت العساكر معه، فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج، فلمّا بلغهم ذلك أقاموا بعكّا ولم يفارقوها.

ذكر مُلك صلاح الدين يافا

لمّا رحل الفرنج نحو عكّا كان قد اجتمع عند صلاح الدّين عسكر حلب وغيره، فسار إلى مدينة يافا، وكانت بيد الفرنج، فنازلها وقاتل مَن بها منهم، وملكها في العشرين من رجب بالسيف عَنوةً، ونهبها المسلمون، وغنموا ما فيها، وقتلوا الفرنج وأسروا كثيراً، وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقَفَل الذي كان معهم، وقد ذُكر ذلك.

وكان جماعة من المماليك الصلاحيّة قد وقفوا على أبواب المدينة، وكلّ مَن خرج من الجُند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه، فإن امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهراً، ثمّ زحفت العساكر إلى القلعة، فقاتلوا عليها آخر النهار، وكادوا يأخذونها، فطلب مَن بالقلعة الأمان على أنفسهم، وخرج البطْرك الكبير الذي لهم، ومعه عدّة من أكابر الفرنج، في ذلك، وتردّدوا، وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال، فأدركهم الليل، وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بُكرة غد ويسلّموا القلعة.

فلمّا أصبح الناس طالبهم صلاح الدّين بالنزول عن الحصن، فامتنعوا، وإذا قد وصلهم نجدة من عكّا، وأدركهم ملك إنكلتار، فأخرج مَن بيافا من المسلمين، وأتاه المدد من عكّا وبرز إلى ظاهر المدينة، واعترض المسلمين وحده، وحمل عليهم، فلم يتقدّم إليه أحد، فوقف بين الصفّين واستدعى[1] طعاماً من المسلمين، ونزل فأكل[2]، فأمر صلاح الدّين عسكره بالحملة عليهم، وبالجدّ في قتالهم، فتقدّم إليه بعض أمرائه يُعرف بالجناح، وهو أخو المشطوب بن عليّ بن أحمد الهكّاريّ. فقال له: يا صلاح

---

(١) في الأوربية: «واستدعا».

(٢) في الأوربية: «أكل»

الدّين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة، وضربوا الناس بالحماقات، [أن] يتقدّموا فيقاتلوا[1]، إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت الغنيمة فلهم. فغضب صلاح الدّين من كلامه وعاد عن الفرنج.

وكان، رحمه الله، حليماً كريماً [كثير العفو عند] المقدرة، ونزل في خيامه، وأقام حتى اجتمعت العساكر، وجاء إليه ابنه الأفضل وأخوه العادل وعساكر الشرق، فرحل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج، فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها[2].

ذكر الهدنة مع الفرنج وعَود صلاح الدين إلى دمشق

في العشرين من شعبان من هذه السنة عُقدت [الهدنة] بين المسلمين والفرنج لمدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر، أوّلها هذا التاريخ، وافق أوّل أيلول، وكان سبب الصلح أنّ ملك إنكلتار لمّا رأى اجتماع العساكر، وأنّه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر، وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه، وقد طالت غيبته عن بلاده، راسل صلاح الدّين في الصلح، وأظهر من ذلك ضدّ ما كان يُظهره أوّلاً، فلم يُجِبه صلاح الدّين إلى ما طلب ظنّاً منه أنّه يفعل ذلك خديعةً ومكراً، وأرسل يطلب منه المصافّ والحرب، فأعاد الفرنجيّ رُسُله مرّة بعد مرّة، ونزل عن تتمّة عمارة عسقلان، و [تخلّى] عن غزّة والدّاروم والرملة، وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة. فأشار هو وجماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح، وعرّفوه ما عند العسكر من الضجر والملل، وما قد هلك من أسلحتهم ودوابّهم ونفد من نفقاتهم، وقالوا: إنّ هذا الفرنجيّ إنّما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده، فإنْ تأخّرت إجابتُه إلى أن يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج للبقاء ها هنا سنة أخرى، وحينئذٍ يعظُم الضرر على المسلمين.

وأكثروا القول له في هذا المعنى، فأجاب حينئذٍ إلى الصلح، فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة، وتحالفوا على هذه القاعدة. وكان في جملة مَن حضر عند صلاح الدّين باليان بن بارزان[3] الذي كان صاحب الرملة ونابلس. فلمّا حلف صلاح الدّين قال له: اعلم أنّه ما عمل أحد في الإسلام [مثل] ما عملتَ، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدّة، فإنّنا أحصينا مَن خرج إلينا في البحر من

---

(١) في الأوربية: «يتقدمون فيقاتلون».
(٢) تاريخ الإسلام (٥٨٨هـ.) ص ٨٥، تاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ٨٥، النوادر السلطانية ٢٢٢.
(٣) في (ب): «بيرزان».

المقاتلة، فكانوا ستّمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كلّ عشرة واحد، بعضهم قتلتَه أنتَ، وبعضهم مات، وبعضهم غرق.

ولمّا انفصل أمر الهدنة أذِن صلاح الدّين للفرنج في زيارة البيت المقدّس. فزاروه وتفرّقوا، وعادتْ كلّ طائفة إلى بلادها. وأقام بالساحل الشاميّ، ملكاً على الفرنج والبلاد التي بأيديهم، الكند هري، وكان خيّر الطبع، قليل الشرّ، رفيقاً بالمسلمين، محبّاً لهم، وتزوّج بالملكة التي كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدّين، كما ذكرناه.

وأمّا صلاح الدّين، فإنّه بعد تمام الهدنة سار إلى البيت المقدّس، وأمر بإحكام سوره [وأدخل في السور كنيسة صهيون وكانت خارجة عنه بمقدار رميتي سهم]. وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين، ووقف عليها الوقوف، وصام رمضان بالقدس، وعزم على الحجّ والإحرام منه، فلم يمكنه ذلك، فسار عنه خامس شوّال نحو دمشق، واستناب بالقدس[1] أميراً اسمه جورديك، وهو من المماليك النوريّة.

ولمّا سار عنه جعل طريقه على الثغور الإسلاميّة كنابلس، وطبريّة، وصفد، وتِبنين، وقصد بيروت، وتعهّد هذه البلاد، وأمر بإحكامها، فلمّا كان في بيروت أتاه بيمُنْد صاحب أنطاكية وأعمالها[2]، واجتمع به وخدمه، فخلع عليه صلاح الدّين وعاد إلى بلده، فلمّا عاد رحل صلاح الدّين إلى دمشق، فدخلها في الخامس والعشرين من شوّال، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، وفرح الناس به فرحاً عظيماً لطول غيبته، وذهاب العدوّ عن بلاد الإسلام[3].

ذكر وفاة قلج أرسلان

في هذه السنة، منتصف شعبان، تُوفّي الملك قلج أرسلان[4] بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمِش بن سلجوق السلجوقيّ بمدينة قُونية، وكان له من البلاد قونية وأعمالها، وأقْصَرا، وسيواس، ومَلَطْيَة، وغير ذلك من البلاد، وكانت مدّة ملكه نحو تسعٍ وعشرين سنة، وكان ذا سياسة حسنة، وَهَيْبَة عظيمة، وعدلٍ وافر، وغزوات

---

(١) في (أ): «بالقدس عز الدين جرديك النوري. ولما».

(٢) في (ب): «أنطاكية وأعمالها وطرابلس».

(٣) النوادر السلطانية ٢٣٥، نهاية الأرب ٢٨/٤٣٦، ٤٣٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٨٧، تاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ٩٠، ٩١.

(٤) أنظر عن (قلج أرسلان) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٨٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

كثيرة إلى بلاد الروم، فلمّا كبر فرّق بلاده على أولاده، فاستضعفوه، ولم يلتفتوا إليه، وحجر عليه ولده قُطب الدّين.

وكان قلج أرسلان قد استناب، في تدبير[1] مُلكه، رجلاً يُعرف باختيار الدّين حسن، فلمّا غلب قُطب الدّين على الأمر قتل حسناً، ثمّ أخذ والده وسار به إلى قَيساريّة ليأخذها من أخيه الذي سلّمها إليه أبوه، فحصرها مدّة، فوجد والده قلج أرسلان فرصة، فهرب ودخل قَيساريّة وحده. فلمّا علم قُطْب الدّين ذلك عاد إلى قُونية وأقْصَرا فملكهما، ولم يزل قلج أرسلان يتحوّل من ولد إلى ولد، وكلّ منهم يتبرّم به، حتّى مضى إلى ولده غياث الدّين كَيْخَسْرُو، صاحب مدينة بَرغلوا، فلمّا رآه فرح به، وخدمه، وجمع العساكر، وسار هو معه إلى قونية، فملكها، وسار إلى أقصرا ومعه والده قلج أرسلان، فحصرها، فمرض أبوه، فعاد به إلى قونية فتُوفّي بها ودُفن هناك، وبقي ولده غياث الدّين في قونية مالكاً لها، حتّى أخذها منه أخوه رُكن الدّين سليمان، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وقد حدّثني[2] بعض مَن أثق به[3] من أهل العلم با يحكيه، وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا، ونحن نذكره، قال إنّ قلج أرسلان قسّم بلاده بين أولاده في حياته، فسلّم دوقاط إلى ابنه ركن الدّين سليمان، وسلّم قونية إلى ولده كَيخَسرو غياث الدّين، وسلّم أنقِرة[4]، وهي التي تسمّى انكشوريّة، إلى ولده محيي الدّين، وسلّم مَلَطْيَة إلى ولده معزّ الدّين قيصر شاه، وسلّم أبْلُسْتَيْن إلى ولده مغيث الدّين، وسلّم قَيساريّة إلى ولده نور الدّين محمود، وسلّم سِيواس وأقصرا إلى ولده قُطْب الدّين، وسلّم نكسار[5] إلى ولد آخر[6]، وسلّم أماسيا إلى ولد أخيه[7].

هذه أمّهات البلاد، وينضاف إلى كلّ بلدٍ من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التي ليست مثل هذه، ثمّ إنّه ندم على ذلك، وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قُطب الدين، وخطب له ابنة صلاح الدّين يوسف، صاحب مصر والشام، ليقوى به، فلمّا

---

(١) في الأوربية: «مدينة».

(٢) من (أ)، وقد كُتبت بحرف كبير.

(٣) في الأوربية: «إليه».

(٤) في (ب): «أنكورية».

(٥) في النسخة رقم ٧٤٠ «نكسار».

(٦) في النسخة رقم ٧٤٠ «أخيه».

(٧) في (ب): «ولد آخر».

سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه، وخرجوا عن طاعته. وزال حكمه عنهم، فسار يتردّد بينهم على سبيل الزيارة، فيقيم عند كلّ واحدٍ منهم مدّة، وينتقل إلى الآخر، ثمّ إنّه مضى إلى ولده كَيْخَسْرو، صاحب قونية، على عادته، فخرج إليه، ولقيه، وقبّل الأرض بين يديه، وسلّم قونية إليه وتصرّف عن أمره، فقال لكيخسرو: أريد [أن] أسير إلى ولدي الملعون محمود، وهو صاحب قَيساريّة، وتجيء أنت معي لآخذها منه؛ فتجهّز وسار معه، وحصر محموداً بقيساريّة، فمرض قلج أرسلان، وتُوفّي عليها، فعاد كيخسرو، وبقي كلّ واحد من الأولاد على البلد الذي[(١)] بيده.

وكان قُطب الدّين، صاحب أقْصَرا وسِيواس، إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الاخرى يجعل طريقه على قَيساريّة، وبها أخوه نور الدّين محمود، وليست على طريقه إنّما كان يقصدها ليُظهر المودّة لأخيه والمحبّة له، وفي نفسه الغدر، فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به، ففي بعض المرّات نزل بظاهر البلد على عادته، وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط، فقتله قُطب الدّين، وألقى رأسه إلى أصحابه، وأراد أخذ البلد، فامتنع مَن به من أصحاب أخيه عليه، ثمّ إنّهم سلّموه إليه على قاعدة استمرّت[(٢)] بينهم.

وكان عند محمود أمير كبير، وكان يحذّره من أخيه قُطب الدّين، (ويخوّفه، فلم يصْغ إليه، وكان جواداً)[(٣)]، كثير الخير، والتقدّم في الدّولة عند نور الدّين، فلمّا قتل قُطْب الدين أخاه[(٤)] قتل حَسَناً معه، وألقاه على الطريق، فجاء كلب يأكل من لحمه، فثار الناس، وقالوا: لا سمعاً ولا طاعة! هذا رجل مسلم، وله ها هنا مدرسة، وتربة، وصدقات دارّة، وأفعال حسَنة، لا نتركه تأكله الكلاب؛ فأمر به فدُفن في مدرسته، وبقي أولاد قلج أرسلان على حالهم.

ثمّ إنّ قطب [الدّين] مرض ومات، فسار أخوه ركن الدّين سليمان صاحب دوقاط إلى سِيواس، وهي تجاوره، فملكها[(٥)]، ثمّ سار منها إلى قَيساريّة وأقْصَرا، ثُمّ

---

(١) في الأوربية: «التي».
(٢) في (ب): «استقرت».
(٣) في (ب): «ويخوّفه من جانبه».
(٤) في (ب) زيادة: «نور الدين».
(٥) في (ب): «فملكها فقوي على جميع إخوته لأنه صار له دوقاط وسيواس وقيسارية وأقصرا».

بقي مُديدة[1]، وسار إلى قُونية وبها أخوه غياث الدّين، فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدّين إلى الشام، ثمّ إلى بلد الروم، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى؛ ثمّ سار بعد ذلك إلى ركن الدّين إلى نكسار وأماسيا، فملكها، وسار إلى ملطيَة سنة سبْعٍ وتسعين وخمسمائة، فملكها وفارقها أخوه معزّ الدّين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، وكان معزّ الدّين هذا تزوّج ابنة للعادل، فأقام عنده. واجتمع لركن الدّين[2] مُلك جميع الإخوة ما عدا أنقرة فإنّها منيعة لا يوصل إليها، فجعل عليها عسكراً يحصرها صيفاً وشتاء ثلاث سنين، فتسلّمها سنة إحدى وستّمائة، ووضع على أخيه الذي كان بها مَن يقتله إذا فارقها، فلمّا سار عنها قُتل.

وتُوفّي ركن الدّين في تلك الأيام، ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رَحِمِه.

وإنّما أوردنا هذه الحادثة ها هنا لنُتبع بعضها بعضاً، ولأنّي لم أعلم تاريخ كلّ حادثة منها لأثبتها فيه.

ذكر ملك شهاب الدين أجمير[3] وغيرها من الهند

قد ذكرنا سنة ثلاثٍ وثمانين [وخمسمائة] غزوة شهاب الدّين الغُوريّ إلى بلد الهند، وانهزامه، وبقي إلى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجُند الغُوريّة الذين انهزموا، وما ألزمهم من الهوان.

فلمّا كان هذه السنة خرج من غَزْنة وقد جمع عساكره وسار منها يطلب عدوّه الهنديّ الذي هزمه تلك النوبة، فلمّا وصل إلى بِرشاوور تقدّم إليه شيخ من الغُوريّة كان يدلّ عليه، فقال له: قد قربنا من العدو؛ وما يعلم أحد أين نمضي ولا من نقصد ولا نردّ على الأمراء سلاماً، وهذا لا يجوز فعله. فقال له السلطان: اعلم أنّني منذ هزمني هذا الكافر ما نمتُ مع زوجتي، ولا غيّرتُ ثياب البياض عنّي، وأنا سائر إلى عدوّي، ومعتمد على الله تعالى لا على الغوريّة، ولا على غيرهم، فإن نصرني الله، سبحانه، ونصر دينه فمن فضله وكرمه، وإن انهزمنا فلا تطلبوني فيمن انهزم[4]، ولو

(١) في (ب): «بقي مدة مديدة».
(٢) في (ب): «لركن الدين سليمان».
(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «احمير»، وفي تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٧٩ «جهير».
(٤) في الأوربية: «فما انهزمت».

هلكتُ تحت حوافر الخيل.

فقال له الشيخ: سوف ترى بني عمّك من الغوريّة ما يفعلون، فينبغي أن تكلّمهم وتردّ سلامهم. ففعل ذلك، وبقي أمراء الغوريّة يتضرّعون بين يديه، ويقولون سوف ترى ما نفعل.

وسار إلى أن وصل إلى موضع المصافّ الأوّل، وجازه مسيرة أربعة أيّام، وأخذ عدّة مواضع من بلاد العدوّ، فلمّا سمع الهنديّ تجهّز، وجمع عساكره، وسار يطلب المسلمين، فلمّا بقي بين الطائفتَيْن مرحلة عاد شهاب الدّين وراءه والكافر في أعقابه أربع منازل، فأرسل الكافر إليه يقول له: أعطني يدك، إنّك تصافقني في باب غَزْنَة حتّى أجيء وراءك وإلاّ فنحن مثقلون[1]، ومثلك لا يدخل البلاد شبه اللصوص ثمّ يخرج هارباً، ما هذا فعل السلاطين؛ فأعاد الجواب: إنّني لا أقدر على حربك.

وتمّ على حاله عائداً إلى أن بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيّام، والكافر في أثره يتبعه، حتّى لحِقه قريباً من مَرَنْدَة[2] فجهّز [حينئذٍ] شهاب الدّين من عسكره سبعين ألفاً، وقال: أريد هذه الليلة تدورون[3] حتّى تكونوا وراء عسكر العدوّ، وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية، وأنا من هذه الناحية؛ ففعلوا ذلك، وطلع الفجر.

ومن عادة الهنود أنّهم لا يبرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس، فلمّا أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كلّ جانب، وضُربت الكوسات، فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك وقال: مَن يقدم عليّ، أنا هذا؟ والقتل قد كثر في الهنود، والنصر قد ظهر للمسلمين؛ فلمّا رأى ملك الهند ذلك أحضر فرساً له سابقاً، وركب ليهرب، فقال له أعيان أصحابه: إنّك حلفتَ لنا أنّك لا تخلّينا وتهرب؛ فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه، والقتال شديد، والقتل قد كثر في أصحابه، فانتهى[4] المسلمون إليه وأخذوه أسيراً، وحينئذٍ عظُم القتل والأسر في الهنود، ولم يَنْجُ منهم إلاّ القليل.

وأُحضر الهنديّ بين يدي شهاب الدّين، فلم يخدمه، فأخذ بعض الحجّاب بلحيته، وجذبه إلى الأرض، حتّى أصابها جبينه، وأقعده بين يدي شهاب الدّين، فقال

---

(١) في الأوربية: «مثقلين».
(٢) في الباريسية: «ربده»، وفي النسخة رقم ٧٤٠ «مرنده».
(٣) في (أ): «تدورون على عسكر»، وفي (ب): «الدولة هذه».
(٤) في (أ): «فانثنى».

له شهاب الدّين: لو استأسرتَني ما كنتَ تفعل بي؟ فقال الكافر: كنتُ[1] استعملتُ لك قيداً من ذهب أقيدك به؛ فقال شهاب الدّين: بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك.

وغنم المسلمون من الهنود أموالاً كثيرة وأمتعة عظيمة، وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلاً، من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدّين في تلك الوقعة. وقال ملك الهند لشهاب الدّين: إن كنتَ طالب بلاد، فما بقي فيها مَن يحفظها، وإن كنتَ طالب مال، فعندي أموال تحمّل أجمالك كلّها[2].

فسار شهاب الدّين وهو معه إلى الحصن الذي له يعوّل عليه، وهو أجمير، فأخذه، وأخذ جميع البلاد التي تقاربه، وأقطع جميع[3] البلاد لمملوكه قُطب الدّين أيبك، وعاد إلى غَزنة، وقتل ملك الهند[4].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قُبض على أمير الحاجّ طاشتكين ببغداد، وكان نِعم الأمير، عادلاً في الحاجّ، رفيقاً بهم، مُحِباً لهم، له أورادٌ كثيرة من صلوات وصيام، وكان كثير الصدقة، لا جَرَم، وقفت أعماله بين يديه فخلّص من السجن، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها خرج السلطان طُغرل بن أرسلان بن طُغْرُل من الحبس بعد موت قزل أرسلان بن إيلدكز، والتقى هو وقتلغ إينانج بن البهلوان بن إيلدكز، فانهزم إينانج إلى الرَّيّ، وكان ما نذكره، إن شاء الله تعالى، سنة تسعين وخمسمائة.

[الوَفَيَات]

وفيها، في رجب، تُوفّي الأمير السيد عليّ بن المرتضى[5] العلويّ الحنفيّ مدرّس جامع السلطان ببغداد.

وفي شعبان منها تُوفّي أبو عليّ الحسن بن هبة الله بن البُوقيّ[6]، الفقيه الشافعيّ الواسطيّ، وكان عالماً بالمذهب انتفع به الناس.

---

(١) في الأوربية: «قد».

(٢) في (أ): «تحمل منها أحمالك».

(٣) في الأوربية: «الجميع».

(٤) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٨هـ.) ص ٧٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٢.

(٥) انظر عن (ابن المرتضى) في: تاريخ الإسلام (٥٨١ ـ ٥٩٠ هـ.) ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ رقم ٣٠٦.

(٦) انظر عن (البُوقي) في: تاريخ الإسلام ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ رقم ٢٩١.

٥٨٩
ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

في هذه السنة، في صفر، تُوفّي صلاح الدّين يوسف[١] بن أيّوب بن شاذي، صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها من البلاد، بدمشق، ومولده بتكريت، وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها، ومُلكهم مصر سنة أربع وستّين وخمسمائة.

وكان سبب مرضه أن خرج[٢] يتلقّى الحاجّ، فعاد، ومرض من يومه مرضاً حادّاً بقي به ثمانية أيّام وتُوفّي، رحمه الله.

وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل عليّاً وأخاه الملك العادل أبا بكر، واستشارهما فيما يفعل، وقال: قد تفرّغنا من الفرنج، وليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأيّ جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خِلاط، لأنّه كان قد وعده، إذا أخذها، أن يسلّمها إليه، وأشار [عليه] ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلج أرسلان، وقال: هي أكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً، وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البرّ، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها. فقال: كِلاكما مقصّرٌ، ناقص الهمّة، بل أقصد أنا بلد الروم، وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خِلاط، فإذا فرغتُ أنا من بلد الروم جئتُ إليكم، وندخل منها أَذَرْبَيجان، ونتّصل ببلاد العجم، فما فيها مَن يمنع عنها.

ثمّ أَذِن لأخيه العادل في المُضِيّ إلى الكَرَك، وكان له، وقال له: تجهّز واحضر لتسير؛ فلمّا سار إلى الكَرَك مرض صلاح الدّين، وتُوفّي قبل عَوده.

---

(١) أنظر عن (السلطان صلاح الدين) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٩هـ.) ص ٨٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في (أ): «وكان قد خرج».

وكان، رحمه الله، كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التّغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يُعلمه بذلك ولا يتغيّر عليه.

وبلغني أنّه كان يوماً جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدّين فأخطأته ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلّم جليسه ليتغافل عنها.

وطلب مرّة الماء فلم يحضر، وعادو الطّلب في مجلسٍ واحد خمس مرّات فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، واللهِ قد قتلني العطش! فأُحضر الماء، فشربه ولم ينكر التّواني في إحضاره.

وكان مرّة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت، فلمّا برىء منه وأُدخل الحمّام كان الماء حارّاً، فطلب ماء بارداً، فأحضره الذي يخدمه، فسقط من الماء شيء على الأرض، فناله منه شيء، فتألّم له لضعفه، ثمّ طلب البارد أيضاً فأُحضر، فلمّا قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنتَ تريد قتلي فعرّفني! فاعتذر إليه، فسكت عنه.

وأمّا كرمه، فإنّه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه أنّه لمّا مات لم يخلّف في خزائنه غير دينارٍ واحد صوريّ، وأربعين دِرهماً ناصريّة، وبلغني أنه أخرج في مدّة مُقامه على عكّا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابّة من فرس وبغل سوى الجمال، وأمّا العين والثياب والسلاح فإنّه لا يدخل تحت الحصر، ولمّا انقرضت الدّولة العلويّة بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرّقه جميعه.

وأمّا تواضعه، فإنّه كان ظاهراً لم يتكبّر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوكَ المتكبّرين بذلك، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفيّة، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقصٍ أو سماعٍ يقوم له فلا يقعد حتّى يفرغ الفقير.

ولم يلبس شيئاً ممّا ينكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملة كان نادراً في عصره[1]، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم

---

(١) في الأوربية: «عسكره».

الجهاد في الكفّار، وفتوحه تدلّ على ذلك، وخلّف سبعة عشر ولداً ذكراً.

ذكر حال أهله وأولاده بعده

لمّا مات صلاح الدّين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدّين عليّ، وكان قد حلّف له العساكر جميعها، غير مرّة، في حياته، فلمّا ماتَ ملكَ دمشق، والساحل، والبيت المقدّس، وبَعْلَبَكّ، وصَرْخَد، وبُصرى، وبانياس، وهُونين، وتِبنين، وجميع الأعمال إلى الدّاروم.

وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها، واستقرّ مُلكه بها.

وكان ولده الظاهر غازي بحلب، فاستولى عليها، وعلى جميع أعمالها، مثل: حارِم، وتلّ باشر، وإعزاز، وبَرزية، ودرب ساك، ومنبج، وغير ذلك.

وكان بحماة محمود بن تقيّ الدّين عمر فأطاعه وصار معه

وكان بحمص شِيركوه بن محمّد بن شيركوه، فأطاع الملك الأفضل.

وكان الملك العادل بالكَرَك قد سار إليه، كما ذكرنا، فامتنع فيه، ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه، فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده، فوعده ولم يفعل، فأعاد مراسلته، وخوّفه من الملك العزيز، صاحب مصر، ومن أتابك عزّ الدّين، صاحب الموصل، فإنّه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزريّة، على ما نذكره، ويقول له: إن حضرتَ جهّزتُ العساكر وسرتُ إلى بلادك فحفظتُها، وإن أقمتَ قَصَدَكَ أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة، وإذا ملك عزّ الدّين بلادك فليس له دون الشام مانع؛ وقال لرسوله: إن حضر معك، وإلاّ فقُلْ له قد أمرني، إن سرتَ إليه بدمشق عُدْتُ معك، وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز أحالفه على ما يختار.

فلمّا حضر الرسول عنده وعده بالمجيء، فلمّا رأى أن ليس معه منه غير الوعد أبلغَه ما قيل له في معنى موافقة العزيز، فحينئذٍ سار إلى دمشق، وجهّز الأفضل معه عسكراً من عنده. وأرسل إلى صاحب حمص، وصاحب حماة، وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب، يحثّهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلاد الجزريّة ليمنعها من صاحب الموصل، ويخوّفهم إن هم لم يفعلوا.

وممّا قال لأخيه الظاهر: قد عرفتَ صحبة[1] أهل الشام لبيت أتابك، فوالله لئن

---

(١) في (ب): «محبة».

ملك عزّ الدّين حَرّان ليقومنّ أهل حلب عليك، ولتخرجنّ منها وأنت لا تعقل[١]، وكذلك يفعل بي أهل دمشق. فاتّفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه، فجهّزوا عساكرهم وسيّروها إلى العادل وقد عبر الفرات[٢]. فعسكرت عساكرهم بنواحي الرُّها بمرج الريحان، وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى.

ذكر مسير أتابك عزّ الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه

لمّا بلغ أتابكَ عزّ الدّين مسعودَ بنَ مودود بن زنكي، صاحب الموصل، وفاةُ صلاح الدّين جمع أهل الرأي من أصحابه، وفيهم مجاهد الدّين قايماز، كبير دولته، والمقدّم على كلّ مَن فيها، وهو نائبه فيهم، واستشارهم فيما يفعل، فسكتوا.

فقال له بعضهم، وهو أخي مجد الدّين أبو السعادات المبارك: أنا أرى أنّك تخرج مسرعاً جريدةً فيمن خفّ من أصحابك وحلقتك الخاصّ، وتتقدّم إلى الباقين باللّحاق بك، وتعطي مَن هو محتاج إلى شيء ما يتجهّز به ما يخرجه ويلحق بك إلى نَصِيبين، وتكاتب أصحاب الأطراف مثل مظفّر الدّين بن زين الدّين، صاحب إربل، وسنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر، وأخيك[٣] عماد الدّين صاحب سنجار ونَصِيبين، تعرّفهم أنّك قد سرْتَ، وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على ما يلتمسونه، فمتى رأوك قد سرْتَ خافوك، وإن أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين إلى الموافقة، وإلاّ بدأت بنصيبين فأخذتها وتركتَ فيها من يحفظها، ثمّ سرتَ نحو الخابور، وهو له أيضاً فأقطعه[٤]، وتركتَ عسكره مقابل أخيك يمنعه من الحركة، إن أرادها، أو قصدتَ الرّقة، فلا تمنع نفسها، وتأتي حَرّان والرُّها، فليس فيها مَن يحفظها لا صاحبٌ ولا عسكرٌ ولا ذخيرة، فإنّ العادل أخذهما من ابن تقيّ الدّين، ولم يقم فيهما ليصلح حالهما، وكان القوم يتّكلون على قوّتهم، فلم يظنّوا هذا الحادث، فإذا فرغتَ من ذلك الطرف عُدْتَ إلى مَن امتنع من طاعتك فقاتلتَه، وليس وراءك ما تخاف عليه، فإنّ بلدك عظيم لا يبالي بكلّ مَن وراءك.

فقال مجاهد الدّين: المصلحة أنّنا نكاتب أصحاب الأطراف، ونأخذ رأيهم في

---

(١) في (أ): «لا تغفل».
(٢) في الأوربية: «الفراة».
(٣) في الأوربية: «وأخاك».
(٤) في النسخة رقم ٧٤٠ «فأقطعته».

الحركة، ونستميلهم، فقال له أخي: إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم؟ قال: لا! قال: إنّهم لا يشيرون إلاّ بتركها، لأنّهم لا يريدون أن يقوى هذا السلطان خوفاً منه، وكأنّي بهم يغالطونكم ما دامت[1] البلاد الجزريّة فارغة من صاحب وعسكر، فإذا جاء إليها مَن يحفظها جاهروكم بالعداوة.

ولم يمكنه أكثر من هذا القول خوفاً من مجاهد الدّين، حيث رأى ميله إلى ما تكلّم به، فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف، فكاتبوهم، فكلٌّ أشار بترك الحركة إلى أن ينظر ما يكون من أولاد صلاح الدّين وعمّهم فتثبّطوا.

ثمّ إنّ مجاهد الدّين كرّر المراسلات إلى عماد الدّين، صاحب سنجار، يعده ويستميله، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق، وقد سار عن دمشق إلى بلاده، يذكر فيه موت أخيه، وأنّ البلاد قد استقرّت لولده الملك الأفضل، والناس متّفقون على طاعته، وأنّه هو المدبّر لدولة الأفضل، وقد سيّره في عسكر جمّ، كثير العدد، لقصد ماردين لمّا بلغه أنّ صاحبها تعرّض إلى بعض القرى التي له، وذكر من هذا النحْو شيئاً كثيراً، فظنّوه حقّاً وأنّ قوله لا ريب فيه، ففتروا عن الحركة، وذلك الرأي، فسيّروا الجواسيس، فأتتهم الأخبار بأنّه في ظاهر حرّان نحو مِن مائتي خيمة لا غير، فعادوا فتحرّكوا، فإلى أن تقرّرت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار، وصلته العساكر الشاميّة التي سيّرها الأفضل وغيره إلى العادل، فامتنع بها وسار أتابك عزّ الدّين عن الموصل إلى نصيبين، واجتمع هو وأخوه عماد الدّين بها، وساروا على سنجار نحو الرُّها، وكان العادل قد عسكر قريباً منها بمرج الريحان، فخافهم خوفاً عظيماً.

فلمّا وصل أتابك عزّ الدّين إلى تلّ مَوْزَن[2] مرض بالإسهال، فأقام عدّة أيّام فضعف عن[3] الحركة، وكثُر مجيء الدّم منه، فخاف الهلاك، فترك العساكر مع أخيه عماد الدّين وعاد جريدة في مائتي فارس، ومعه مجاهد الدّين وأخي مجد الدّين، فلمّا وصل إلى دَنَيْسِر استولى عليه الضعف، فأحضر أخي وكتب وصيّة، ثمّ سار فدخل الموصل وهو مريض أوّل رجب.

---

(١) في الأوربية: «مهما».

(٢) في (أ): «موزون».

(٣) في الأوربية: «فضعفت من».

ذكر وفاة أتابك عزّ الدين وشيء من سيرته

في هذه السنة تُوفّي أتابك عزّ الدّين مسعود[1] بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، وقد ذكرنا عَوده إليها مريضاً، فبقي في مرضه إلى التّاسع والعشرين من شعبان، فتُوفّي، رحمه الله، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة، وكان قد بقي ما يزيد على عشرة أيّام لا يتكلّم إلا بالشهادتيْن، وتلاوة القرآن، وإذا تكلّم بغيرها استغفر الله، ثمّ عاد إلى ما كان عليه، فرُزق خاتمة خير، رضي الله عنه.

وكان، رحمه الله، خيّر الطبع، كثير الخير والإحسان، لا سيّما إلى شيوخ قد خدموا أباه، فإنّه كان يتعهّدهم بالبرّ والإحسان، والصلة والإكرام، ويرجع إلى قولهم، ويزور الصالحين، ويقرّبهم، ويشفّعهم[2].

وكان حليماً، قليل المعاقبة، كثير الحياء، لم يكلّم جليساً له إلاّ وهو مطرق، وما قال في شيء يُسألُهُ: لا، حياء وكَرَم طبْع.

وكان قد حجّ، ولبس بمكّة، حرسها الله، خِرقة التّصوّف، وكان يلبس تلك الخرقة كلّ ليلة، ويخرج إلى مسجد قد بناه في داره، ويصلّي فيه نحو ثُلث الليل؛ وكان رقيق القلب، شفيقاً على الرعيّة.

بلغني عنه أنّه قال، بعض الأيّام: إنّني سهرت الليلة كثيراً، وسبب ذلك أنّي سمعتُ صوت نائحة، فظننتُ أنّ ولد فلان قد مات، وكان قد سمع أنّه مريض، قال: فضاق صدري، وقُمْتُ من فراشي أدور في السطح، فلمّا طالَ عليّ الأمرُ أرسلتُ خادماً إلى الجانداريّة، فأرسل منهم واحداً يستعلم الخبر، فعاد وذكر إنساناً لا أعرفه، فسكن بعض ما عندي فنمتُ؛ ولم يكن الرجل الذي ظنّ أن ابنه مات من أصحابه إنّما كان من رعيّته.

كان ينبغي أن تتأخّر وفاته، وإنّما قدّمناها لتتبع أخباره بعضها بعضاً.

ذكر قتل بكتمر صاحب خِلاط

في هذه السنة، أوّل جُمادى الأولى، قُتل سيف الدّين بكتمر، صاحب خلاط،

---

(١) أنظر عن (عز الدين مسعود) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٨٩هـ.) ص ٣٤٧ رقم ٣٦٦.

(٢) في (أ): «وينفعهم».

وكان بين قتله وموت صلاح الدّين شهران، فإنّه أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدّين، فلم يُمهله الله تعالى، ولمّا بلغه موت صلاح الدّين فرح فرحاً كثيراً، وعمل تختاً جلس عليه، ولقّب نفسه بالسلطان المعظَّم صلاح الدّين، وكان لَقَبه سيف الدّين، فغيّره، وسمّى نفسه عبد العزيز، وظهر منه اختلال وتخليط، وتجهّز ليقصد ميّافارقين يحصرها، فأدركته مَنِيّته.

وكان سبب قتله أنّ هزار ديناري، وهو أيضاً من مماليك شاه أرمن ظهير الدّين، كان قد قوي وكثُر جَمْعه، وتزوّج ابنة بكتمر، فطمع في الملك، فوضع عليه مَن قتله، فلمّا قُتل ملك بعده هزار ديناري بلاد خلاط وأعمالها.

وكان بكتمر ديّناً، خيّراً، صالحاً، كثير الخير، والصلاح، والصدقة، مُحِبّاً لأهل الدّين والصوفيّة، كثير الإحسان إليهم، قريباً منهم ومن سائر رعيّته، محبوباً إليهم، عادلاً فيهم، وكان[1] جواداً شجاعاً عادلاً في رعيّته حسن السيرة فيهم[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة شتّى شهاب الدّين ملك غزنة في برشاوور، وجهّز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة، فأدخله بلاد الهند يغنم ويسبي، ويفتح من البلاد ما يمكنه، فدخلها، وعاد فخرج[3] هو وعساكره سالماً[4]، قد ملأوا أيديهم من الغنائم.

وفيها[5]، في رمضان، تُوفّي سلطان شاه، صاحب مرو وغيرها من خُراسان، وملك أخوه علاء الدّين تكش بلاده، وسنذكره سنة تسعين [وخمسمائة] إن شاء الله.

وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظاميّة

---

(١) من (أ).

(٢) أنظر عن (بكتمر) في: مرآة الزمان ج ٨، ق ١/ ٤٢٣، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٤، وانسان العيون لابن أبي عذيبة، ورقة ٤٦، ومفرّج الكروب ٣/ ١٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٨٨، ٨٩، والدر المطلوب ١٢٥، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٧٧، ٢٧٨ رقم ١٥٠، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٩هـ.) ص ٨٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٩، والوافي بالوفيات ١٠/ ١٨٩، ١٩٠، رقم ٤٦٧٥، والبداية والنهاية ١٣/ ٧، وشفاء القلوب ٢٠٢، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٣٢، ١٣٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢١٠، وشذرات الذهب ٤/ ٢٩٧.

(٣) في الأوربية: «خرج».

(٤) في (أ): «سالمين».

(٥) من (أ).

ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة أُلوفاً لا يوجد مثلها.

وفيها، في ربيع الأوّل، فُرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة أيضاً بالحريم الطاهريّ[١]، غربيّ بغداد على دجلة، وهو من أحسن الرُّبط، ونقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب.

وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد[٢] خُوزستان، وسبب ذلك أنّ صاحبها سُوسَيان[٣] بن شملة جعل فيها دزداراً، فأساء السيرة مع جُندها، فغدر به بعضهم فقتله، ونادوا بشعار الخليفة، فأرسل إليها وملكها.

وفيها انقضّ كوكبان عظيمان[٤]، وسُمع صوت هدّة عظيمة، وذلك بعد طلوع الفجر، وغلب ضوءُهما القمر وضوءَ النهار[٥].

[الوفيات]

وفيها مات الأمير داود بن عيسى[٦] بن محمّد بن أبي هاشم، أمير مكّة، وما زالت إمارة مكّة تكون له تارة، ولأخيه مُكثِر تارة، إلى أن مات.

وفي هذه السنة تُوفّي أبو الرشيد الحاسب البغدادي، وكان قد أرسله الخليفة الناصر لدين الله في رسالة إلى الموصل فمات هناك.

---

(١) في الأوربية: «الظاهري».

(٢) في (ب): «قلاع».

(٣) في النسخة رقم ٧٤٠ «سوسان».

(٤) في (ب) زيادة: «واضطرما».

(٥) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٩هـ.) ص ٩٠.

(٦) في (ب): «عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد». وانظر عنه في: تاريخ الإسلام(٥٨١ - ٥٩٠هـ.) ص ٣٢٣ رقم ٣٣٣.

٥٩٠
ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهنديّ

كان شهاب الدّين الغوريّ، ملك غَزْنة، قد جهّز مملوكه قُطب الدّين أيبك، وسيّره إلى بلد الهند للغَزَاة، فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد، فلمّا سمع به ملك بنارس، وهو أكبر ملك في الهند، ولايته من حدّ الصين إلى بلاد مَلاوا طولاً، ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيّام من لهاوور عرضاً، وهو ملك عظيم، فعندها جمع جيوشه، وحشرها[1]، وسار يطلب بلاد الإسلام.

ودخلت سنة تسعين [وخمسمائة] فسار شهاب الدّين الغُوريّ من غَزْنة بعساكره نحوه، فالتقى العسكران على ماجون، وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل، وكان مع الهنديّ سبع مائة فيل، ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل، ومن جملة عسكره[2] عدّة أمراء مسلمين، كانوا في تلك البلاد أباً[3] عن جدّ، من أيّام السلطان محمود بن سبكْتكِين، يلازمون شريعة الإسلام، ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير، فلمّا التقى المسلمون والهند اقتتلوا، فصبر الكفّار لكثرتهم، وصبر المسلمون لشجاعتهم، فانهزم الكفّار، ونُصر المسلمون، وكثُر القتل في الهنود، حتّى امتلأت الأرض وجافت، وكانوا لا يأخذون إلاّ الصبيان والجواري، وأمّا الرجال فيُقتلون، وأخذ منهم تسعين فيلاً، وباقي الفِيَلة قُتل بعضها وانهزم بعضُها، وقُتل ملك الهند، ولم يعرفه أحدٌ، إلاّ أنّه كانت أسنانه قد ضعُفت أصولُها، فأمسكوها بشريط الذّهب، فبذلك عرفوه.

---

(١) في (أ): «وحشدها»، وفي (ب): «وحسدها».

(٢) في الأوربية: «عسكر».

(٣) في الأوربية: «أب».

فلمّا انهزم الهنود دخل شهاب الدّين بلاد بنارس، وحمل من خزائنها على ألفٍ وأربع مائة جمل، وعاد إلى غَزْنة ومعه الفِيَلة التي أخذها من جملتها فيلٌ أبيض.

حدّثني مَن رآه: لمّا أُخذت الفِيَلة، وقدمت إلى شهاب الدّين، أُمرت بالخدمة، فخدمت جميعها إلاّ الأبيض فإنّه لم يخدم، ولا يعجب أحدٌ من قولنا الفِيَلة تخدم، فإنّها تفهم ما يُقال لها، ولقد شاهدتُ فيلاً بالموصل وفيّالُه يحدّثه، فيفعل ما يقول له[1].

ذكر قتل السلطان طُغرُل ومُلك خوارزم شاه الريّ ووفاة أخيه سلطان شاه

قد ذكرنا سنة ثمانٍ وثمانين [وخمسمائة] خروج السلطان طُغرُل بن ألْب أرسلان بن طُغرُل بن محمّد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقيّ من الحبس، ومُلكه هَمذان وغيرها، وكان قد جرى بينه وبين قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، حرب انهزم فيها قتلغ إينانج، وتحصّن بالريّ.

وسار طُغرُل إلى همذان، وأرسل قتلغ إينانج إلى خُوارزم شاه علاء الدّين تكش يستنجده، فسار إليه في سنة ثمانٍ وثمانين [وخسمائة]، فلمّا تقاربا ندم قتلغ إينانج على استدعاء خُوارزم شاه، وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصّن في قلعة له، فوصل خُوارزم شاه إلى الريّ وملكها، وحصر قلعة طَبَرَكَ ففتحها في يومَيْن، وراسله طُغرُل، واصطلحا، وبقيت الريّ في يد خُوارزم شاه فرتّب فيها عسكراً يحفظها، وعاد إلى خُوارزم لأنّه بلغه أنّ أخاه سلطان [شاه] قد قصد خُوارزم، فجدّ في السير خوفاً عليها، فأتاه الخبر، وهو في الطريق، أنّ أهل خُوارزم منعوا سلطان شاه عنها، ولم يقدر على القرب منها، وعاد عنها خائباً، فشتّى خُوارزم شاه بخُوارزم، فلمّا انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسعٍ وثمانين [وخمسمائة]، فتردّدت الرسل بينهما في الصلح.

فبينما هم في تقرير الصلح ورد على خُوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوه ليسلّم إليه القلعة لأنّه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه، فسار خُوارزم شاه إليه مُجِدّاً، فتسلّم القلعة وصار معه.

وبلغ ذلك سلطان شاه ففُتّ في عَضُده، وتزايد كمده، فمات سلْخ رمضان سنة

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٠هـ.) ص ٩١، ٩٢.

تسع وثمانين وخمسمائة؛ فلمّا سمع خُوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فَتَسلّمها، وتسلّم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه، وأرسل إلى ابنه علاء الدّين محمّد، وكان يلقّب حينئذٍ قُطب الدّين، وهو بخُوارزم، فأحضره فولاّه نَيسابور، وولّى ابنه الأكبر ملكشاه مَرْوَ، وذلك في ذي الحجّة سنة تسعٍ وثمانين.

فلمّا دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طُغْرل بلد الرَّيّ فأغار على مَن به من أصحاب خُوارزم شاه، [ففرّ منه قتلغ إينانج بن البهلوان[1]، وأرسل إلى خُوارزم شاه] يعتذر ويسأل إنجاده مرّةً ثانية؛ ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خُوارزم شاه يشكو من طُغرل، ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد، فسار من نيسابور إلى الرّيّ، فتلقّاه قتلغ إينانج ومَن معه بالطاعة، وساروا معه، فلمّا سمع السلطان طُغرُل بوصوله كانت عساكره متفرّقة، فلم يقف ليجمعها، بل سار إليه فيمن معه، فقيل له: إنّ الذي تفعله[2] ليس برأي، والمصلحة أن تجمع العساكر؛ فلم يقبل، وكان فيه شجاعة، بل تمّم مسيره، فالتقى العسكران بالقرب من الرَّيّ، فحمل طُغرل بنفسه في وسط عسكر خُوارزم شاه، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل، وحُمل رأسه إلى خُوارزم شاه، فسيّره من يومه إلى بغداد فنُصب بها بباب النّوبيّ عدّة أيّام.

وسار خُوارزم شاه إلى هَمذان، وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سيّر عسكراً إلى نجدة خُوارزم شاه، وسيّر له الخِلع السلطانيّة مع وزيره مؤيّد الدّين بن القصّاب، فنزل على فرسخ من هَمذان، فأرسل إليه خُوارزم شاه يطلبه إليه، فقال مؤيّد الدّين: ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخِلعة من خيمتي؛ وتردّدت الرسل بينهما في ذلك، فقيل لخُوارزم شاه: إنّها حيلة عليك حتّى تحضر عنده ويقبض عليك؛ فرحل خُوارزم شاه إليه قصداً لأخذه، فاندفع من بين يديه والتجأ إلى بعض الجبال فامتنع به، فرجع خُوارزم شاه إلى هَمذان، ولمّا ملك هَمذان وتلك البلاد سلّمها إلى قتلغ إينانج، وأقطع كثيراً منها لمماليكه وجعل المقدّم عليهم مياجق، وعاد إلى خُوارزم[3].

---

(١) في الأوربية: «البلوان».

(٢) في الأوربية: «يفعله».

(٣) مرآة الزمان ج ٨، ق ٤٤٤/١، ٤٤٥، إنسان العيون، ورقة ٥٢، نهاية الأرب ٦٣/٢٧، المختصر في=

ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان ومُلكها

في هذه السنة، في شعبان، خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب في الوزارة مؤيّد الدّين أبي عبد اللّه محمّد بن عليّ المعروف بابن القصّاب، خِلَعَ الوزارة، وحُكّم في الولاية، وبرز في رمضان، وسار إلى بلاد خُوزستان؛ [وسبب ذلك أنّه كان أولاً قد خدم في خُوزستان] ووليَ الأعمال بها، وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف، وعرف البلاد ومن أيّ وجه يمكن الدّخول إليها والاستيلاء عليها، فلمّا وليَ ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله في عسكر إليها ليملكها له، وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقرّ فيها أقام مُظهراً للطاعة، مستقلاً بالحكم فيها، ليأمن على نفسه.

فاتّفق أنّ صاحبها ابن شملة تُوفّي، واختلف أولاده بعده، فراسل بعضهم مؤيّدَ الدّين يستنجده لِما بينهم من الصُّحْبة القديمة، فقوي الطمع في البلاد، فجُهّزت العساكر وسُيّرت معه إلى خُوزستان، فوصلها سنة إحدى وتسعين [وخمسمائة] وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها، وملك مدينة تُسْتَر في المحرّم، وملك غيرها من البلاد، وملك القلاع منها: قلعة الناظر، وقلعة كاكرد، وقلعة لاموج، وغيرها من الحصون والقلاع، وأنفذ بني شملة أصحاب بلاد خُوزستان[1] إلى بغداد، فوصلوا في ربيع الأوّل[2].

ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدّين، وهو صاحب مصر، إلى مدينة دمشق، فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل عليُّ بن صلاح الدّين. وكنتُ حينئذٍ بدمشق، فنزل بنواحي مَيدان الحصى، فأرسل الأفضل إلى عمّه الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، وهو صاحب الدّيار الجَزَريّة، يستنجده، وكان الأفضل غاية الواثق به والمعتمد عليه، وقد سبق ما يدلّ على ذلك، فسار الملك العادل إلى دمشق

= أخبار البشر ٣/٨٩، دول الإسلام ٢/١٠٢، سير أعلام النبلاء ٢١/٢٦٧، ٢٦٨، رقم ١٤٠، العبر ٤/٢٧٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٠هـ) ص ٩٢، تاريخ ابن الوردي ٢/١٠٩، البداية والنهاية ١٣/٩، النجوم الزاهرة ٦/١٣٤، تاريخ ابن سباط ١/٢١١، ٢١٢، شذرات الذهب ٤/٣٠١.

(١) في (أ): «أصحاب البلاد إلى خوزستان».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٠هـ.) ص ٩٤.

هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدّين، صاحب حلب، وناصر الدّين محمّد بن تقيّ الدّين، صاحب حماة، وأسد الدّين شِيركوه بن محمّد بن شيركوه، صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيرها، كلّ هؤلاء اجتمعوا بدمشق، واتّفقوا على حفظها، علماً منهم أنّ العزيز إن ملكها أخذ بلادهم.

فلمّا رأى العزيز اجتماعهم علم أنّه لا قدرة له على البلد، فتردّدت الرسل حينئذٍ في الصلح، فاستقرّت القاعدة على أن يكون البيت المقدّس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، وتبقى دمشق وطَبَرِيّة وأعمالها والغَور للأفضل، على ما كانت عليه، وأن يعطي الأفضل أخاه الملك الظاهر جَبَلة ولاذقيّة بالساحل الشاميّ، وأن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأوّل، واتّفقوا على ذلك، وعاد العزيز إلى مصر، ورجع كلّ واحدٍ من الملوك إلى بلده[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الأوّل[2] بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد، سقطت منها الجبّانة التي عند مشهد أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام.

وفيها، في جُمادى الآخرة، اجتمعت زعب وغيرها من العرب، وقصدوا مدينة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فخرج إليهم هاشم بن قاسم، أخو أمير المدينة، فقاتلهم فقُتل هاشم، وكان أمير المدينة قد توجّه إلى الشام، فلهذا طمعت العرب فيه.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوفّي القاضي أبو الحسن أحمد بن محمّد بن عبد الصّمد الطَّرَسُوسيّ الحلبيّ بها، في شعبان، وكان من عباد الله الصالحين، رحمه الله تعالى.

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٠هـ.) ص ٩٥، البداية والنهاية ٩/١٣.

(٢) لم يذكرها السيوطي في (كشف الصلصلة)، أنظر: ص ١٩٤.